

أحمد رمضان

انتحار فاشل



قصص

دار نشر
الكتاب العربي

انتحار فانتل

(مجموعة قصصية)

احمد رمضان

كيان كورب للنشر والتوزيع
دار ليلي

© جميع الحقوق محفوظة، وأي اقتباس
أو تقليد أو إعادة طبع - دون موافقة
كتابية - يعرض صاحبه للمساءلة
القانونية

الكتاب:

انتحار فاشل

المؤلف:

احمد رمضان

الغلاف:

محمد محمود

الإشراف العام:

محمد سامي

المهندسين-23 شارع السودان-تقاطع مصدق-الدور الرابع-مكتب 11
هاتف: (002) (02) 33370042 - (002) (012) 23885295
البريد الإلكتروني: mail@darlila.com الموقع الرسمي: www.darlila.com

احمد رمضان

انتجار فاشل

دار لیلی کیان کورپ
لنشر والتوزیع

المجرم

عدت من عملي متأخراً .. أشتريت بعض الأغراض قبل أن أقرب من الحارة التى أسكن فيها .. تفاجئت بسيارة شرطة تسد مدخل الحارة .. أنتشر حولها بعض العساكر لمنع الأهالى من التقدم .. خلف الحاجز الذى صنعه الجنود وقف كثير من الأهالى يتطلعون بفضول و تساؤل .. حاولت المرور موضحاً لهم أنى من قاطنى الحارة و لكنهم منعونى بحزم .. قالوا أن الأمر لن يستغرق سوى دقائق .. لم أجد مفرّاً من الأندساس بين الواقفين .. تلك ليست أول مرة يحدث فيها هذا الموقف .. يتكرر كل فترة حين يأتون للقبض على شخص ما .. و عادة لا يستغرق الأمر وقتاً

قتلنى الفضول كما قتل القطة من قبل لمعرفة هدفهم هذه المرة .. خاصة أن معظم السكان لم يكونوا على علم بالضحية – أو المجرم – الذين يسعون خلفه .. و العساكر البسطاء لم يكن لديهم أدنى فكرة ، و لم نستطع أن نستخرج منهم أى معلومة حتى بعد أن منحناهم بعض السجائر و تقربنا منهم فى الكلام

من المؤكد أنهم جاءوا للقبض على زاهر السياب .. ورث عن أبيه تجارة المخدرات و لكنه لم يرث عنه حرصه أو ذكائه .. لم تستطع الشرطة القبض على أبيه يوماً رغم نشاطه المعروف الذى أمتد لسنوات .. زاهر مغرور و جري أكثر من اللازم .. والده كان يعمل فى الخفاء و بحرص أكبر .. على عكس أبيه يتباهى زاهر بنفوذه بعد أن بسط سيطرته على المنطقة .. دخل فى صراعات كثيرة .. أكتسب العديد من الأعداء .. بعضهم من ذوى النفوذ .. من المؤكد أن أحدهم وشى به .. تمنيت أن يكون هو .. على الأقل تتخلص الحارة من أجرامه و نفوذ أتباعه .. و لكن صعب أن يكون هو .. رغم غروره و أخطائه الكثيرة لكنه ليس بتلك السذاجة ليخزن بضاعته فى منزله أو مكانه فى الحارة .. أعلم بالتأكيد أنه يحتفظ بها فى مخازن بعيدة و يجيد تصريفها بعيداً عن مكان أقامته ، و عن محل الأقمشة الكبير الذى يتخذة كستار له .. كما أنه مسافر منذ ثلاثة أيام .. ازدادت حيرتى .. من يكون أنن

سمعت أسم عادل يسرى همساً بين الناس .. هل جاءوا للقبض على عادل .. أعترف أنى أحسست بقليل من الشماتة .. يمتلك عادل محل أجهزة كهربائية فى نهاية الحارة .. بدأ طريقه الخاص بشراء الأجهزة المسروقة ثم إعادة بيعها .. بعدها أصبح يتاجر فى كل شئ .. مسروق طبعاً .. ذهب .. ساعات .. هواتف نقالة .. أدوات زينة .. ذمته أصبحت تتسع لأى بضاعة

مجهولة المصدر .. شهرته بدأت بالتعرف على عزمى .. أشهر هجاء فى المنطقة وأكثرهم خطورة .. يشتري منه كل ما تطوله يده فى مغامراته الليلية .. ثم بدأ يوسع علاقاته .. تعرف على مزيد ممن أشتهروا بالقلوب الجريئة و الأيدى الطويلة .. من النادر أن تجد لص منازل أو نشال فى المنطقة لا يعرف عادل .. أحفظ بالمحل القديم كما هو دون تغيير درءاً للأنظار و لم يغادر الحارة .. قام بتوسعة بيته القديم و صرف عليه الكثير .. من دخل بيته يحكى عن فخامته من الداخل .. و أولاده نقلهم من المدرسة القريبة المتهاكة إلى أرقى المدارس الخاصة .. يحتفظ بأمواله كلها داخل بيته و لا يضعها بالبنك .. وقفت على أطراف أصابع قدمى و توجهت ببصرى نحو محله فى آخر الحارة .. لاحظت أنه مفتوح .. رأيت بعض العساكر متمركزون فى وسط الحارة بعيداً عنه .. من المستحيل أن يكون هو .. تأكدت ظنوني بعد أن ظهر بعد قليل ليقف أمام محله يستطلع الأمر .. سحب كرسيّاً من الداخل و جلس أمام محله بهدوء .. هززت رأسى فى أسف .. شعرت بقليل من خيبة الأمل

عصرت ذهنى .. بحثت كثيراً فى تاريخ حارتى الأسود .. أستعرضت الأسماء فقفز إلى ذهنى أسم منها .. أعلم أن لو تفتح عمل الشيطان .. و لكن لو كان هو .. لأقمت حفلاً فى الحارة .. عزمى المجاهد بالتأكيد .. أعتقد أنى

لست الوحيد الذى سيحتفل بالتخلص منه .. لم يجتمع أهل الحارة منذ نشأتها على شئ أكثر من أجماعهم على بغض عزمى المجاهد و تمنى الخلاص منه .. أجرامه فاق كل حدود .. مسجل خطر .. دخل السجن عدة مرات و لكنه كان يخرج منه سريعاً .. آخر مرة دخل السجن لشهرين .. ظننا أننا تخلصنا منه .. وزع بعض الأهالى الشرابات أبتهاجاً بالمناسبة .. من سوء حظنا أن الانتخابات كانت قريبة .. أخلوا سبيله قبلها بأيام .. نجح مرشح الحكومة الذى ساندته بالطبع و اختفى منافسه بعدها بفترة .. عزمى مجرم صعب أن تصنفه ، و هنا مكمن خطورته .. لو أستطاع الأكتفاء بنشاط واحد ربما عشنا معه بسلام .. متعدد المواهب حقاً .. هجاء .. بلطجى .. نصاب .. موزع مخدرات .. قاتل .. موسوعة أجراء حية زاهرة تعيش و تتنفس بيننا .. بدأ حياته بالسطو على المنازل .. و عندما بدأت أعصابه تخذله بعد أن عرف طريق الألمان .. بحث عن طريق أسهل .. الخطف .. أشتري دراجة و بدأ فى أستخدامها هو و أحد أعوانه فى خطف حقائب السيدات و أحياناً مصاعهم .. ثم تعلم حمل السلاح و بدأ الخروج ليلاً للبحث عن ضحية منكوبة و تهديدها لأفراغه من كل ثمين يحمله .. أفراطه فى المخدرات دفعه للمتاجرة بها أحياناً .. ثم القيام بدور البلطجى لمصلحة من يدفع له أكثر .. راقى له اللعبة ففرض أتاوة شهرية على كل أصحاب

المحلات .. ثم أصحاب البيوت .. جمع عصابة من الأوباش مثله فلم يستطع أهل الحارة مواجهته .. يستخدم أسلحته بخبرة جراح ماهر .. من يعارضه يحمل تذكراً خالداً فى وجهه أو جسمه حتى لا ينساه .. ولا بأس من وقت لآخر بجريمة قتل حتى يذكر الناس بسطوته .. دعوت المولى أن يكون هو حقاً .. من المؤكد أن كل هذه القوة جاءت للقبض عليه احتياطاً لخطورته .. أسترحت لهذا الخاطر للحظات .. حتى تفاجئت بعزى نفسه يقف ورائى .. لو تطلع إلى اللحظة لرأى آثار الدهشة بوضوح على وجهى .. لم يفعل لحسن حظى .. أندس بين الواقفين ببساطة يسأل عن الخبر

شلت رؤية عزى تفكيرى للحظات .. عدت لأستعرض الصور و مراجعة الاحتمالات بحيرة أكبر .. هل جاءوا للقبض على أمين صاحب المخبز الوحيد فى الحارة الذى يقوم بتهريب الدقيق المدعم تحت أعين الجميع لبيعه فى السوق السوداء .. أم محسن الميكانيكى هو الهدف بعد أن أشتكاه أحد زبائنه .. كلنا نعرف مهارته فى سرقة قطع الغيار الأصلية للسيارات التى يقوم بأصلاحها و أستبدالها بأخرى تجارية رخيصة .. هل الدور على زيزى الراقصة بعد أن فاحت رائحة زبائن آخر الليل لديها .. ربما عباس صاحب القهوة الذى يوصل أبوابها من الداخل ليلاً لتتحول إلى غرزة لتدخين الحشيش .. أحسست بدوار .. بدأت يدي تؤلمنى من حمل الأغراض التى

أشتريتها لفترة طويلة .. اللعنة .. أعيانى التفكير .. لماذا أشغل نفسى كثيراً
بمعرفة الأسم .. يد العدالة ستطول أحد اليوم على كل حال و ستتخلص
الحارة من أحد أوباش قاطنيها .. وهذا هو ما يهمنى .. صحيح أنى صدمت
لعدم القبض على عزمى .. ولكن لكل كلب يومه .. وربما أسترحنا ممن هو
أخطر منه

لحظات صمت مرت ثقيلة على الجميع قبل أن نرى حركة فى الشارع ..
أعتدل العساكر المرابضون فى وسط الحارة .. هبط بعض الجنود من أحد
البيوت هناك .. أثنان منهم يمسكون شخص ما بأحكام .. لم نتعرف على
ملاحمه من الأجساد التى كانت تعيق رؤيتنا و لكنهم كانوا يمسكونه بشكل
يوحى بمدى خطورته .. بعدها بثوان هبط شخص ثان و ثالث بنفس
الطريقة .. قبضوا على ثلاثة أذن .. تمنيت أن يقبضوا على مجرم واحد
فقبضوا على ثلاثة دفعة واحدة .. أبتهجت .. أقتربوا منا .. بعد عدة أمتار
بان ملامح المقبوض عليه بوضوح .. تحولت نظرات التساؤل إلى دهشة ثم
سريعاً إلى استنكار .. وسط العساكر كان يمشى محمود بأنكسار .. من المؤكد
أن هناك خطأ ما .. محمود ابن الحاج حسين موظف الكهرباء .. الكل يشهد
بأخلاقه و سمعته الطيبة .. أحد القلائل الذين يسكنون الحارة و يتمتعون
بأحترام و ثقة الجميع .. موظف بسيط فى الحكومة أحسن تربية أولاده و

علمهم رغم متاعب الحياة .. لا نذكره إلا بالخير هو وأسرتة البسيطة .. محمود يدرس فى كلية الحقوق .. شاب ملتزم كما نعرفه .. لم يقدم يوماً على فعل خاطئ أو ارتكاب حماقة .. نعلم أنه موهوب و يكتب مقالات أحياناً فى بعض الصحف الصغيرة .. لمحنا الحاج حسين يخرج من المنزل خلف أبنه يمنعه الجنود من الوصول إليه .. ثم والدته تلحق بزوجها خارج البيت رغم مرضها وهى تبكى أبنها الوحيد .. بسرعة حشروهم فى مؤخرة السيارة .. شق العساكر طريقاً بين الناس يسمح بمرور السيارة .. لم نعلم إلا لاحقاً بعدها بأيام أنه متهم بالأخلال بالأمن العام هو و زملائه .. شارك فى مظاهرة داخل الجامعة و كتب كلاماً جارحاً فى أحد مقالاته .. هكذا قال لنا محاميه .. و لكنه لم يخبرنا لمن كان الكلام جارحاً .. أنتهزوا فرصة وجوده فى منزله هو و أثنان من أصدقائه المشاركين فى المظاهرات للقبض عليهم بعد أن أبلغ عنهم أحد المخبرين المتواجدين بصفة دائمة فى الحارة .. أشعر بمرارة كلما تذكرت هذا المشهد يومها .. سيارة الشرطة تشق طريقها بسرعة بين الناس .. عزمى الهجوم يقف خلف سيارة الشرطة المنطلقة بقوة .. يقلب كفيه فى تعجب .. يتطلع إلى محمود المنزوى فى ركن منها هو و زملائه .. يعلق بتأثر صائحاً بحكمته الخالدة : صحيح .. الحرام عمره ما يدوم

أستعداد

لاحظ أنها نامت أكثر من المعتاد .. لفت الغطاء على وجهها بينما أحكمت وضع الوسادة فوق رأسها كالعادة فلم يظهر إلا القليل من جسدها الضئيل .. تردد للحظات أن يوقظها قبل موعد تناولها للحقنة اليومية التي أوصى بها الطبيب .. ثم قرر أن يتركها لخمس دقائق أخرى فإن لم تنهض من تلقاء نفسها بادر هو بإيقاظها

ذهب لأعداد كوب من قهوته الصباحية المعتادة .. تناوله ببطء و هو يشاهد النشرة .. سرح مع الأخبار بعد أن ارتفع ضغط دمه كالعادة من مشاهدتها .. عادة سيئة يقسم مراراً أن يقلع عنها ولكنه لا يفعل .. أنتبه إلى أن مهلة الخمس دقائق طالت لتصبح ثلاث ساعة .. نهض بسرعة و أتجه إلى غرفتها .. وجد زوجته كما هي لم تتحرك و كأنها أتحدت مع السرير فى كيان واحد مشترك .. تذكر أنها سهرت بالأمس تتألم من نوبة سعال أنتباتها و نامت بصعوبة .. قرر أن يمنحها مهلة ثانية .. مهلة أخيرة ثم

يوقظها قبل خروجه لصرف المعاش

دخل إلى حجرة نومهما .. منذ تزوج الأبناء و هى لا تنام فيها إلا نادراً .. تفضل أن تنام فى غرفة أبنها الأكبر .. دائماً تحكم الغطاء حول نفسها بعد أن تقوم بتعديل صورة أبنائها التى تضعها على المنضدة الصغيرة بجوار السرير لتصبح فى مواجهتها .. تحججت من فترة طويلة أن حجرة نومهما " بحرى " وجسدها الضعيف لم يعد يتحمل برودتها فى الشتاء خاصة بعد كوكتيل الامراض الذى أجتاح جسدها من سنوات .. ضغط .. سكر .. و تصلب شرايين أجرت معه جراحة من شهر مضى ما زالت تتعافى من آثارها .. هزل جسمها و ضعفت قواها و لكنها بعناد تصر أن تقوم بدورها .. يعلم أنها تحن لأبنائها الذى تزوج آخرهم من شهران و فارق عشها بشكل نهائى .. مع المرض و فراق الأبناء زادت عصبيتها فى الفترة الأخيرة .. تذكر المشاجرة التى حدثت بينهما أمس .. و لكن الغريب أنه لم يعد يتذكر السبب .. سبب مختلف كل مرة و ينتهى الشجار سريعاً .. تثور عليه ثم تفاجئه بعدها بلحظات و هى تحضر كوب الماء له و تذكره بتناول دوائه اليومى .. يعانى هو أيضاً من ضغط الدم و لكن ما زالت معاناته أقل بكثير مقارنة بمعاناتها

أمس أجهدت نفسها .. دعت الأولاد على الغداء و صممت أن تقوم و

تشرف على كل شئ بنفسها رغم تحذيرات الطبيب .. كانت عصبية بشكل كبير .. هكذا دائماً تزداد عصبيتها عندما تدعو أحد إلى البيت .. ترغب أن يبدو كل شئ فى أبهى صورة .. بعد أنصراف الأبناء أضطر للقيام بمهام التنظيف بعد أن شعرت بألم فى قدميها لم تستطع معه أن تؤدي أى عمل .. رغم أنه نام قبلها و لكنه أدرك أنها لم تنم إلا قبل الفجر بقليل .. اعتادت أن تستيقظ مبكراً مهما سهرت فما الذى أخرها هكذا .. أنتابه خاطر مزعج تسلل إلى عقله بخبت .. أقترب من سريرها فلم يلحظ أى حركة تنفس .. قال فى سره : معقول يكون حصل لها حاجة .. دى تبقى كارثة

غادر الحجرة بعد أن أقلقه خاطر .. أتجه إلى الصالة و جلس على الأريكة .. يريد بعض الوقت للتفكير فقدوته على اتخاذ رد فعل سريع فى المواقف الطارئة لم تعد كالسابق .. لو حدث شئ ما لها بالفعل .. كيف سيتصرف ؟ .. سيحزن على شريكة عمره بالتأكيد و لكنه سيتمالك نفسه .. سيطلب الأسعاف فوراً .. و ربما يستعين ببعض الجيران .. عليه أن يبدو هادئاً أمام الجميع رغم الكارثة .. رزيناً كعادته و كشخص هذيقته السنين من فترة و اختبرته بكل أشكال المصائب مراراً .. ماذا عن الأولاد .. من المؤكد أنه سيتصل بكل واحد منهم و لكن يجب أن يقوم بالأمر بمنتهى الحكمة .. سيتصل بالأبن الأكبر أولاً و يطلعه على ما حدث بهدوء وبشكل مباشر..

سيحدثه بتعقل كرجل مسئول يعتمد عليه و سيخفف هذا بالتأكيد من وقع الصدمة .. أما الأبن الأصغر فمن المؤكد أنه فى العمل الآن .. سيتصل بزوجته و هى ستتولى المهمة عنه .. يعلم أنها أقدر منه على نقل الخبر إليه بطريقتها الخاصة .. المشكله فى أبنته .. عليه أن يكون هادئاً معها للغاية فهو يدرك أنها عاطفية و شخصيتها أنفعالية إلى أبعد حد مثل أمها .. سيبلغها الأمر بالتدريج .. أمك مريضة .. الطبيب هنا .. تريد رؤيتك .. فكر ماذا سيفعل أمام أبنائه عندما يتوافدون إلى المنزل فزعاً .. يعلم مدى تعلقهم بأهمهم .. يتخيل تأثير الموقف عليهم .. يراهم بعين خياله مصدومين مما حدث .. عيونهم كساها اللون الأحمر من البكاء و أطرافهم ترتجف من وقع الصدمة .. كبار هم و لكنهم ما زالوا صغاراً أمام المصائب و ربما أنهار أحدهم تحت وطأتها .. يجب أن يبدو أمامهم رابط الجأش مهما كان حزنه و ألمه حتى يهدئ من روعهم .. عليه أن يظهر كقدوة لهم لو حدث الأمر.. مثل هذه المواقف تحتاج إلى ثبات بالتأكيد .. خبراتهم بالمصائب قليلة بينما يمتلك هو رصيد من الخبرات يسعفه .. سيظل يواسيهم حتى يخفف عنهم ألم الفراق الصعب و هو - عكس أبناؤه - رجل عسكرى يتمتع بثبات أنفعالى عالى سيخدمه .. فكر لو حدث الأمر .. سيكون مستعداً للتعامل معه بالتأكيد

مرت نصف ساعة أخرى و هو ما زال فى مكانه يفكر .. أنتبه و طرد تلك

الخواطر السوداء من رأسه .. أستغفر و أستعوذ من شيطان يعيث بعقله و تفكيره .. دخل غرفة أبنه الأكبر ليوقظها بلطف فلاحظ أن زوجته كما هى لم تتحرك .. خطأ للداخل فشر بشئ غامض داخل الغرفة .. شئ لا يراه ولكنه ألقه بشدة .. أقرب من سرير زوجته .. ناداها فلم ترد عليه .. نادى عليها أكثر من مرة فلم ترد .. مد يده و هز جسدها برفق بلا أستجابة منها .. سحب الغطاء و هزها بعنف دون نتيجة .. تحسس جسدها .. بارد على غير العادة .. فتح عينيها فحدق فى فراغ بلا حياة .. أحتضن يدها و أحكم قبضته على شرايين معصمها فلم يشعر بنبض الحياة يسرى فيها .. أفلت ذراعها فتهاوت بلا مقاومة

كانت بالفعل قد ماتت

كل ما يتذكره الابن الأكبر أن أباه أتصل به و هو يصرخ بهلع قائلاً له أن أمه ماتت .. أما أبنته فتقول أنه أتصل بها و هو يبكى و يهذى و لم تستطع أن تستوعب شيئاً من كلامه سوى أسم أمها الذى ظل يردده عدة مرات بلا وعى .. يقول الجيران أنهم سمعوا صرخة فزع عالية و لأول مرة تقع أعينهم على العجوز الوقور يرتجف بهذا الشكل .. عندما أتى الأولاد كان قابلاً أمام جثمانها يحملق فيها بلا وعى و جسده ينتفض .. ظل الجميع لساعات يحاولون تهدئته بلا فائدة حتى أنهار فاقداً وعيه.. و طوال العزاء لم يستطع

الخروج أو التحدث .. حبس نفسه داخل غرفته مكتفياً بالتحديق بذهول نحو السقف ومستمراً بالهذيان بكلمات غير مفهومة .. اضطروا لأحضار طبيب للكشف عليه بعد أن ساءت حالته فأخبرهم أنه يمر بأزمة عصبية شديدة فسرّها بحالة الوفاة الصادمة لزوجته التى لم يكن مستعداً لها .. و رغم وجود أبنائه بجواره لمساعدته و التخفيف عليه .. إلا أن حالته ساءت أكثر و لم يجدوا بداً فى النهاية من أيداعه مصحة نفسية حتى يستعيد توازنه الذى فقده بسبب أزمة وفاة زوجته المفاجئة

الحارة

رجع سعيد بعد غربة أستمرت سبع سنوات إلى حارته حيث نشأ .. تذكر آخر مرة غادرها فيها .. أقسم ساعتها إلا يعود عليها أبداً .. ولكن للضرورة أحكام .. بعد كل تلك المدة التى حافظ فيها على قسمه يضطر للرجوع إلى حارته القديمة ليشهد فرح أخته.

لم يشأ أن يخطر أحد بموعد قدومه .. أرادها أن تكون مفاجأة .. يشناق لرؤية أهله رغم أنه يحرص منذ سفره على التواصل معهم كلما أتاحت له الفرصة .. يغلبه الشوق لرؤية أخته الوحيدة حقاً .. أخته التى تحمل مسئوليتها بعد وفاة والده فأغرقها بمشاعر أبوة لم يظن يوماً أنه يمتلكها .. تركها طفلة فى بداية دراستها الثانوية و ها هو الآن يعود ليشهد زفافها .. لم يصدق أن دورة الأيام كانت أسرع من حساباته و هو رجل لا يجيد أكثر من الحسابات .. فرح أخته الصغيرة اليوم .. الطفلة التى كانت تعدو أمامه تلهو ببعض الحلوى كبرت لتعدو بفستان الفرح .. هز رأسه مبتسماً بعدم

تصديق .. تعتمد أن لا يطلع أحداً بموعد قدومه حتى لا يعطل ترتيبات
الحفل .. و تمنى لو تم الزفاف خارج الحارة لعله يتجنب رؤية أهلها و لكن
لم يكن الأمر بيده..

أسرع الخطا وسط الحارة .. تحسس حلقه الأنيقة غالبية الثمن و حقيبة
يده الوحيدة التي تحوى بعض الهدايا الثمينة .. سيبقى لعدة أيام فقط و
سيعود بعدها بسرعة .. أعماله فى الخارج لا تقبل التأجيل .. و لن يمكث إلا
لمدة كافية تسمح له بالأطمئنان على أخته و أمه قبل أن يعود إلى عالم لم يعد
ينتابه شعور بالراحة كثيراً خارجه..

تطلع إلى الحارة شبة الخاوية .. و شوارعها الضيقة المتعرجة التى خلت
وقتها من المارة .. يبدو و كأن الجميع فى الفرح الآن .. تلك عادة الأفراح
الشعبية كما عرفها منذ صغره .. الكل يترك أعماله ليشترك فيها

سار يتمهل وسط الدكاكين المغلقة تعاوده بعض الصور من الماضى .. صور
تراكمت عليها أعوام طوال حتى ظن أنه نسيها .. تطلع فيما حوله
مستهزئاً .. لا يبدو و كأن يد التغيير أتت بجديد على الحارة طوال المدة التى
غاب فيها .. نفس الحارة القديمة بشوارعها المهملة لم يزددها مرور الزمن إلا
خراباً بعد أن ترك آثاره على بعض أبنيتها .. سار بتمهل يطالع المحلات
المغلقة على جانبي الطريق .. أبتسم حانقاً و هو يتفحصها مستعيداً بعض

ذكرياته .. و تعاود ذاكرته رغماً عنه حكايات و مواقف قديمة ربطته
بالمكان..

على رأس الحارة .. يقبع " مخبز الأمين " .. صاحبه فتحى الأمين ..
أسم على غير مسمى .. أبتسم بمرارة و هو تذكر كيف كان يقف هنا
بالساعات تحت نار الشمس الحارقة فقط لبيتاع بعض الخبز .. كم مرة تقاتل
فيها لأن شخصاً تعدى على دوره فى الطابور الطويل الذى يبدو وكأنه يمتد
بلا نهاية .. أو أحداً داسه بالأقدام فى طريقه فوق رؤوس الناس للمخبز ..
يستعيد فى مخيلته صورة تلك اللحظات و هو يصمد لاهث الأنفاس ..
ملابسه متسخة و العرق الغزير ينساب من جسده بقوة بينما فتحى الأمين
صاحب المخبز يقبع فى الداخل ينفث دخان شيشته بهدوء و هو ينظر
للأجساد المتدافعة بلا مبالاة .. يقولون أنه يهرب الدقيق المدعوم إلى السوق
السوداء و يكسب كثيراً .. لا يهتم سوى بالنقود و ليذهب الناس إلى
الجحيم .. أغمض عينيه و هو يسترجع تلك اللحظات المؤلة و أسرع الخطى
قليلاً.

أدار وجهه بعيداً حتى لا يتذكر المزيد .. شعور بالأشمئزاز تجاه حارته
ينمو بداخله ليسيطر عليه .. و المرارة التى يشعر بها فى حلقة الآن لا سبيل
للتخلص منها .. تنبه إلى أنه توقف أمام محل " عباس الحلاق " .. هز رأسه

فى حنق .. كم مرة جاء هنا .. كان والده يأمره دوماً بالتردد على عباس
صديقه دون غيره .. يتذكر كيف كان يأتى متأففاً .. عباس الكهل العملاق لا
يجيد سوى قصة شعر واحدة يطبقها على كل الزبائن .. حاول كطفل ثم
كمراهق أن يطلب منه القيام بعمل تسريحة حديثة مثل باقى زملائه .. و
لكن عباس كان يستهزئ به و يصب لعناته على كل موضة جديدة و يتشبث
بتسريحته المعهودة .. كل مرة يخرج من عنده لاعناً أياه .. عباس ثرثار و
يتركه أحياناً على كرسي الحلاقة لفترة طويلة لينطلق للثرثرة مع صديق عابر
أو لشراء بضاعة ينادى عليها بائع متجول مر بالمصادفة أمام المحل .. يتذكر
كيف أنقطعت الكهرباء ذات مرة و أضطر للحلاقة تحت ضوء مصباح قديم ..
و عندما تطلع فى المراء بعد عودة الكهرباء ، كاد يبكى قهراً بعد أن رأى
الجروح الصغيرة تعلو وجهه و رأسه .. لا ينسى يوم رسوبه فى اختبار اللغة
العربية فى إحدى سنوات دراسته الأولى .. حمله أبوه إلى المحل قهراً و أمر
عباس أن يحلق له شعره تماماً كعقاب له .. توسل الى عباس و قاومه و لكن
الحلاق العملاق أمسكه بقوة و بدأ فى عمله بلا رحمه .. لمدة شهر كامل
بعدها لبث فى البيت لا يجرؤ على الخروج و رؤية الشارع حتى لا يعرض
نفسه لسخرية زملائه .. يستذكر دروسه و هو يصب لعناته على الحلاق و
الدراسة معاً .. و لم يرسب بعدها أبداً

هز رأسه لعله ينسى تلك الذكريات .. واصل سيره .. عبر الحارة إلى اليسار .. لاحظ أكوام من القمامة ملقاة بأهمال بجوار مطعم " صلاح الأدهم " .. تساءل بتقزز.. متى يصيب التحضر هؤلاء الناس .. تذكر المطعم .. مطعم صغير يقف به صاحبه صلاح صباحاً مساءً أمام موقد النار القديم ليعد أقراص الفلافل الساخنة و الفول الذى طالما أمتلئت به معدته دون أن يجد له بديلاً يناسب ضالّة مصروفه .. لا ينسى طعم الفلافل الساخنة التى تخرج من زيت تحول لونه للأسود من كثرة الاستخدام .. يأكلها بلا نفس و يجرع وراءها أكثر من كوب ماء ليتخلص من نارها على قلبه .. يتذكر حانقاً كم مرة وجد الطماطم فاسدة داخل الشطائر التى يشتريها فى طريقه صباحاً للمدرسه ، أو عندما يكثّر عم صلاح من الملح كعادته على الطعام فيتحول إلى " فسيخ " لا يستطيع تذوقه ..

لا يدري لما تعاوده تلك الصور الآن .. ربما رؤية كل تلك الأماكن مرة أخرى تثير ذاكرته للعودة للماضى قسراً .. يسرع فى المشى قليلاً .. يتجاوز محل " عم عاشور الخياط " .. كم مرة خاط هنا ملابسه .. تذكر آخر مرة طلب منه عمل بنطال .. و عندما أنتهى كان ضيقاً لدرجة أنه لم يستطع ارتدائه .. طلب من الرجل العجوز تعديل المقاس .. و لكن الكهل أخذ وقتاً كبيراً حتى شعر بالندم لطلبه .. و عندما أنتهى تفاجئ بالبنطال واسعاً جداً على جسده

الضئيل .. لم يشأ العودة إليه مرة أخرى .. ورمى البنطال فى خزانته دون أن يرتديه أبداً

تحسس حقيبة الهدايا .. نظر إلى ساعة يده الغالية .. قطرات من العرق تنساب منه .. سحب منديله المعطر و توقف ليلتقط أنفاسه قليلاً .. ثم واصل طريقه .. يقترب من محل عم " كامل البقال " .. يدعو ربه أن يكون مغلقاً .. لطالما كره هذا الرجل .. عندما كان صغيراً اعتادت أمه أن تناديه يومياً عدة مرات لشراء أغراض من البقالة بينما هو منغمس تماماً فى اللعب مع أصدقائه .. يترك اللعب ثائراً و هو يلعن كثرة الطلبات و يلعن معها عم كامل البقال .. لما لا تطلب منه أمه كل الطلبات مرة واحدة .. و لما لا يغلق عم كامل دكانه مبكراً و يريحه من التردد عليه طوال اليوم .. يتذكر يوم أشتري بعض الحليب من عنده .. و عندما توجه به للبيت أكتشفت أمه أنه فاسد .. غضبت و أمرته أن يذهب و يسكبه فى وجه " كامل الغشاش " كما صرخت فى وجهه .. كان صغيراً و خائفاً .. ذهب و سكب اللبن بعيداً و أشتري غيره من مصروفه من دكان بعيد .. لا ينسى محمود ابن عم كامل الذى زامله طويلاً فى المدرسة .. كان لا يحبه و لكنه يضطر لأستذكر دروسه معه لأنهم جيران .. أستراح بعدما نجح هو فى الثانوية بينما رسب محمود .. يمر من أمام دكان عم كامل .. الدكان مغلق و إن أبقى صاحبه بعض المصابيح مضاءة أمام المحل

كعادته .. يتنفس الصعداء .. يسرع الخطى و هو يلهث نحو بيته .. ينعطف يساراً .. يقابله دكان عم "جميل" بائع العطور .. يشتهر عم جميل بتقليد العطور الغالية و بيعها لأهالى الحارة بثمن رخيص .. كيف ينسى يوم أشتري زجاجة عطر من عنده و أستعملها .. فى المساء ظهرت بقع حمراء على رقبتة و يديه .. لم يكن يعلم أن لديه حساسية من العطور .. واضطر للذهاب للطبيب

لن الحارة فى سره .. و كل ما يمت إليها بصلة .. أنعطف يمينا .. وقع بصره على دكان "حمادة العجلاتى" .. تطلع للمحل بغضب لم يستطع دفعه .. عندما كبر و أصبح ركوب دراجته الصغيرة أمراً محرّجاً أمام زملائه ، و لم يستطع والده شراء دراجة جديدة له ، بدأ يعتاد المجئ هنا لأستئجار الدراجات .. تذكر يوم أستأجر دراجة لساعة واحدة فقط ليلعب مع أصدقائه .. لم يشعر بالوقت و تأخر .. فذهب عم حمادة إلى أبيه ليشتكوه .. ليلتها عاقبه والده بشدة .. ولم يكتفى حمادة بذلك بل أستولى منه على قيمة إيجار ساعة أخرى على الرغم من أنه لم يتأخر سوى لدقائق معدودة..

ها هو يقترب من بيته .. يراه من بعيد .. يتنفس بأرتياح .. يتوقف أمام آخر محل قبل البيت .. محل "رشدى الساعاتى" .. المحل مغلق أيضاً .. ما زال يتذكر ذلك اليوم و هو يلهو بالكرة مع أصدقاؤه أمام بيته .. فى أثناء

المباراة تملكه الحماس بقوة.. الفريقين متعادلان و من يحرز هدفاً أولاً يفوز بالمباراة .. أستلم الكرة بمهارة من صالح زميله و سددها بقوة .. أحرز هدفاً جميلاً أنهى المباراة لفريقه فقفز فرحاً .. لكن الكرة كانت قوية لدرجة أنها طارت بعيداً و حطمت زجاج محل رشدى الساعاتى .. ظل لشهرين بعدها يدفع من مصروفه الصغير ثمناً للزجاج المكسور بعد أن أشتكى عم رشدى لوالده

لطالما كره هذه الحارة .. مراراً طلب من والدته أن ترحل عنها إلى مكان جديد و لكنها تمسكت ببيتها القديم .. والأدهى أنها أصرت على إقامة حفل زفاف أخته وسط الحارة و أمام بيتهما القديم رغم أعتراضه الشديد .. لم يرغب بالقدوم إلى هنا .. سيؤدى واجبه تجاه أخته الوحيدة .. يطمئن عليها ثم يغادر الحارة سريعاً .. يتمنى لو كان بمقدوره إلا يقابل أحد من أهلها ، و لكن لا مفر من ذلك .. كانت أمه تستحثه على المجئ مبكراً .. لم ينس أنه رجل البيت بعد وفاة والده .. أراد أن يساعدها فى تحمل مشقة الفرح و لكن ظروف عمله لم تسمح له .. و تفهمت أمه ذلك

أخيراً يقترب من البيت .. الأنوار المتلألأة تستقبله .. تملأ المكان بينما فرش سجاد أحمر على الطريق .. عندما اقترب أكثر لم يجد بداً من التوقف .. اتسعت عينيه فى ذهول .. توقف مبهوراً يطالع فيما حوله

بدھشة لم يستطع أن يخفيها .. كان يتوقع فرحاً صغيراً .. ولكنه تفاجئ
بفرح كبير لم ير مثله من قبل في الحارة .. أنتشرت باقات الورد في كل ركن
من الحارة .. الكراسي في كل مكان .. المسرح الكبير يسد الحارة بأكملها
بينما سماعات ضخمة أنتشرت من حوله .. الأنوار تغطي بيته القديم من
الأرض و حتى سطح البيت و تمتد لتغطي بيوت كثيرة حوله .. ما أن رآه
بعض الحاضرين حتى أندفعوا للترحيب به .. هرع أصدقائه القدامى
لأحتضانه .. لم يتوقع أستقبلاً دافئاً كهذا بعد طول تغيبه عن الحارة و
أهلها .. رد التحية بود بينما يشق طريقه بصعوبة نحو بيته .. العروس ما
زالت في البيت لم تغادره .. مراسم الحفل لم تبدأ بعد .. يرفع بصره للسماء
حمداً أنه أتى في الوقت المناسب .. يسرع إلى البيت بصعوبة .. يرتقى الدرج
بسرعة .. أضواء الفرح تمتد للداخل حيث أجمعت بعض النساء داخل البيت
للغناء بمرح .. تسرع النساء بالخروج عند علمهن بقدومه .. تستقبله أمه على
الباب بشوق ما أن يتناهى إلى سمعها نبأ وصوله .. ما أن يراها حتى يرتضى
في أحضانها للحظات و يغيب عن الزمن لبرهة .. تندفع الدموع من عينيها و
هو بين يديها .. يقبل رأسها ثم يستسلم لأحضانها الحارة مرة أخرى ،
يتمنى أن يتوقف الزمن ليبقى هكذا للأبد .. تربت على كتفه بحنان ..
تتمالك نفسها فتسمح دموعها .. تمسك بيديه و هى تبتسم له بأشتياق ..

تطمئن عليه .. تقوده بحنان إلى الداخل .. إلى حيث غرفة أخته .. طرق الباب و أنساب داخلها بخفة .. خرجت بعض الصديقات ممن بقين بجوار العروسة لتزيينها .. ما أن وقع بصره عليها حتى تسمر فى مكانه .. لم يصدق عينيه .. صغيرته أصبحت عروسة حقاً يتوج جمالها فستان أبيض رائع .. أقترب منها فى دهول .. منع الدموع بصعوبة أن تنساب من عينيه .. بينما أنسابت الدموع من عينيه.. تذكر أنها وعدته أن لا تزف إلى عريسها إلا و هو بجانبها .. لن تقبل أن تدع أحد آخر يمسك بيديها ليقودها إلى حياة جديدة إلا هو .. أرتمت فى أحضانه فقبل رأسها فى شوق .. ربت على خدها بحنان ثم أسرع بالخروج قبل أن تغلبه مشاعره تاركاً لها المجال لأكمال زينتها..

أصوات الموسيقى تعلو من الخارج .. يتقدم إلى الشرفة و يتطلع منها إلى الحارة بينما تسرع أخته لتعديل زينتها بعد أن أبتل وجهها بدموع الأشتياق له .. يشعر بأمه بجانبه .. تتطلع معه للحركة التى تموج بالشارع .. يهمس فى أذنها بعد برهة " لم أتوقع فرحاً كهذا " .. تربت على يده برفق " أهل الحارة لم يتركونا للحظة واحدة .. تولوا كل شئ .. أحبوا والدك حقاً و أقسموا أن يقيموا فرح لأبنته يليق بمحبتهم .. و يعوض غيابه .. "

تنفّس بعمق و هو يشرف على الحارة ببصره .. يبدو الجميع فى حركة

مستمرة لأنهاء ترتيبات الفرح .. من بعيد يقف على الأمين و هو يحمل مجموعة من الكراسى و يرتبها بينما يساعده عباس الحلاق و قد تقوس ظهره تحت ثقل كرسى كبير يحمله .. يتذكر سعيد عندما مرض والده أصر على الأمين أن يبعث دوماً بالخبز إلى البيت كل صباح مع أحد صبياناه ، و عباس الحلاق الذى وقف دائماً بجانب والده فى مرضه و لازمه فى المستشفى لحظة وفاته .. يشاهد عاشور الخياط بجلبابه الأبيض و عبائه الحجازية التى لا يرتديها إلا فى المناسبات يقف لأستقبال المهنئين .. الكل يحب هذا الرجل .. يعتبرونه كبير الحارة لسنه و وقاره .. عاشور لم يخرج من بيته لفته بسبب مرضه .. هكذا كان يسمع ، و لكنه يتحامل الآن على نفسه ليشارك الجميع الفرحه .. يلوح عم كامل البقال و أبنه محمود – زميل دراسته القديم – فى نهاية الحارة يقومان بنقل صناديق المشروبات بهمة و نشاط تمهيداً لتوزيعها على المدعوين .. لا ينسى سعيد يوم أن نجح فى الثانوية .. كان أول من عرف بالنتيجة عم كامل بعد أن ذهب لمعرفة نتيجة أبنه .. أستقبله فى الحارة بالترحاب .. أحتضنه مهنئاً آياه بدفء و فخر و كأنه والده .. لم ينسى سعيد ذلك الحزن أبداً .. وعلى الرغم من أن محمود أبنه قد رسب .. لكن هذا لم يمنعه من أن يقوم بتوزيع المشروبات على الحارة كلها أحتفالاً بنجاحه .. أحتفال صادق عفوى لم ينسى أثره إلى الآن .. عم

جميل يقف من بعيد يرتب باقات الورد العملاقة .. عندما سافر سعيد أصر
عم جميل أن يوصله للمطار بسيارته الصغيرة على الرغم من أن ميعاد طائرته
كان بعد منتصف الليل و هو ينام مبكراً ، و ظل في المطار حتى أطمئن عليه ..
في البيت المقابل لمح صلاح الأدهم في إحدى الشرفات يقوم بتعليق بعض لمبات
الأضواء .. يوازن نفسه على سور الشرفة حتى لا يقع .. تذكر ليالى رمضان
عندما كان يغدو قبل الفجر لشراء الفول الساخن للسحور .. أعتاد صلاح أن
يلبى طلبه أولاً على الرغم من كثرة الزبائن أكراماً لوالده .. و كان يكثر من
الطحينية على الفول لأنه يعلم أن سعيد يعشقها .. و قبل آذان المغرب يهرع
للمسجد كعادته لتوزيع التمر و المشروبات على الصائمين و كان سعيد يساعده
أحياناً بحماس .. تبدأ الموسيقى في العزف بصخب .. وصل العريس على
الأرجح .. على المسرح حمادة العجلاتى يختبر الميكروفون و السماعات ..
يتأكد أن كل شئ سليم .. لا ينسى يوم أن أستأجر دراجه منه ، أندفع مع
زملائه بحماس و أختل توازنه فوق و أنساب الدم من أنفه .. حمادة كان
أول من هرع إليه .. لم يهتم بالدراجة التى تحطمت .. حمله و توجه به
مسرعاً إلى العيادة فى الحارة المجاورة و لم يعد به إلى بيته إلا بعد أن أطمئن
عليه .. تقطع أمه شريط ذكرياته .. حان موعد الزفاف .. يتقدم إلى أخته ..
تتأبط ذراعه ليزفها إلى عريسها .. ينزلان الدرج ببطء بينما الموسيقى تتصاعد

فى الخارج .. ىخرجان للحارة و يده فى يدها .. تعلقو الزغاريد و ىرقص البعض .. رشدى الساعاتى يطلق عدداً من الأعيرة النارية فتطفى على صوت الموسيقى و هو ىرقص أحتفالاً .. ىمشيان ببطء بينما تزفهما الفرقة الموسيقية من البيت و حتى المسرح الكبير الذى توسط الشارع .. أهل الحارة ىشكلون دائرة حول سعيد الذى وقف فى وسطها .. ىنظر إلى الفرح و إلى أهل الحارة الذين أندمج بعضهم فى الرقص بمرح بينما وقف آخرون ىصفقون بحماس .. ىتطلع سعيد إلى كل تلك الوجوه الباسمة .. ىنتابه شعور ما بداخله .. شعور مفاجئ ىجتاحه فىستسلم له .. ىقف وسط الحشد الصاخب حوله تنتابه أنفعالات شتى .. ىبيتسم لأول مرة منذ وصوله إلى الحارة .. و لأول مرة منذ سبع سنوات كاملة أيضاً .. ىحس سعيد بالأمان..

دائرة الحرامية

أنهى صابر عمله و توجه بسرعة نحو السوق لشراء احتياجات المنزل قبل عودة الأولاد من مدارسهم .. بدأ بشراء الخضار من المحل القريب من منزله .. رغم عدم جودة المعروض تفاجئ بزيادة الأسعار .. سأل البائع المتجهم عن السبب فلم يجبه فى البداية قبل أن يرد عليه بنفاذ صبر بأن كل الأسعار أرتفعت و أن " السوق عرض و طلب " .. الحجة التاريخية المعتادة التى طالما سمعها .. وفقاً لهذا المبدأ يجب أن تهبط أسعار بعض السلع من وقت لآخر و لكن الأسعار المجنونة لدى هؤلاء التجار لا تعرف سوى طريقاً واحداً.. للأعلى فقط .. حمل الاغراض غاضباً .. يعلم أن البائع يستغله نظراً لعدم وجود محلات قريبة .. لم يعد هناك خير .. هكذا قالها لنفسه و هو يسرع بالعودة إلى منزله .. بينما وقف البائع يلاحقه بنظراته و هو ينفث دخان سيجارته بلا مبالاة

* * *

أغلق سعيد البائع محله و توجه نحو منزله .. تذكر أن عليه المرور على

الطبيب .. هذه الكحة اللينة التي لا تفارقه .. تكاد تمزق أضلاعه و تعجزه
عن النوم .. ربما بسبب أفراطه فى التدخين رغم أنه توقف من أسبوع تقريباً
عن السهر مع أصدقائه فى الغرزة القريبة و تدخين الجوزة .. توجه إلى
الطبيب بتثاقل .. العيادة مزدحمة كالعادة .. تطلع إلى الكراسى القليلة
المتهالكة و الجدران التى أكلتها رطوبة قديمة .. عيادة متواضعة لا تتناسب
مع شهرة الطبيب .. أنتظر لساعات بصبر مكبوت .. عندما حان دوره أخيراً
تفاجئ بارتفاع قيمة الكشف لدى الطبيب .. كان هنا من أسبوعين فقط عندما
كتب له الطبيب دواءً لم يفلح فى تخفيف حدة الكحة لديه .. دفع مضطراً
قيمة الكشف المضاعف متسائلاً عن السبب فى زيادتها بهذا الشكل الفج ..
كشف عليه الطبيب للمرة الثانية طالباً منه القيام هذه المرة بعمل أشعة ..
أوصاه بمركز أشعة بعيد رغم وجود أكثر من مركز قريب من العيادة .. يسمع
أنه يتقاضى نسبة عن كل " زبون " يرسله إلى هناك .. خرج غاضباً بعد أن
وصف له دواءً مهدئاً .. يرغب فى علاج لحالته و ليس مهدئاً لا ينفع و ربما
يضر .. ما زاد من حقنه أنه لم يمكث لدى الطبيب أكثر من ثلاثة دقائق بعد
ساعات من الانتظار أسرع الطبيب بعدها لأستقبال زبونه التالى

* * *

قبل منتصف الليل أنهى الممرض تنظيف العيادة .. جلس الطبيب مرهقاً
يراجع أيراد اليوم .. عاد لمنزله متأخراً .. ما زالت زوجته مستيقظة بينما نام

الأولاد .. تناول عشاءه وحيداً كالعادة .. طلبت منه زوجته مصروف البيت و هو يذلف للفرش .. ناولها المبلغ المعتاد و هو بين البيقظة و النوم .. تطلعت إليه للحظة قبل أن تطلب زيادة .. سألتها عن السبب فأخبرته ببساطة أن معلم الدروس الخصوصية لأولاده زاد قيمة الحصة .. تساءل محتجاً عن سبب الزيادة المفاجئة .. هزت كتفها لترد أن كل المعلمين قاموا بنفس الأمر .. اللعنة .. أولاده يعتمدون بشكل كبير على الدروس الخاصة .. لا وقت لديه لمساعدة أولاده فى الأستذكار أو مراجعة دروسهم التى لا تنتهى .. العيادة تستهلك كل وقته بالإضافة إلى عمل المستشفى الصباحى المرهق .. رغم أهتمامه بالمال إلا أنه يدرك أن أولاده هم أستثماره الحقيقى .. و لهذا لا يبخل عليهم .. يعلمهم جيداً .. ألحقهم بأفضل المدارس الخاصة طمعاً فى تعليم أفضل .. و لكن بيته مزدحم دائماً بمعلمين من كل المواد ملتهمين جزءاً كبيراً من دخله .. و تساءل بحنق .. لماذا لا يقوم هؤلاء المعلمين بدورهم على أكمل وجه داخل مدارسهم .. هو نفسه لم يأخذ درساً فى حياته .. و أولاده أذكى منه .. لماذا لا تكفيهم دروس المدرسة إذن .. فكر لوهلة أن يرفض و لكنه تراجع .. تنهد فى ضيق .. لن يرضي طموحه سوى تفوق أبنائه مهما دفع .. حلمه أن يرى أبنائه أطباء مثله .. ناول زوجته المبلغ حانقاً .. لا يحب أن يستغله الناس .. أثار الموقف بأكملة غيظه لدرجة كبيرة .. و رغم أرهاقه لم

يستطع النوم

* * *

أنهى المعلم الدرس .. نظر فى ساعته .. ناولته زوجة الطبيب ثمن الدرس .. تأكد أنها لم تنسى الزيادة التى طلبها .. غادر مسرعاً بعد أن دس المبلغ فى جيبه .. لم يعد لديه دروس أخرى اليوم و لكنه يحتاج للذهاب إلى ورشة الميكانيكى لأستلام سيارته التى تعرضت لعطل مفاجئ .. وقف طويلاً فى انتظار تاكسى .. يشعر بالضيق .. لا يستطيع الاستغناء عن عربته .. قدميه التى يسير عليها متنقلاً من مكان لآخر للوفاء بجدول دروسه اليومى المزدحم .. بدونها يضيع وقت طويل فى التنقل هو فى أمس الحاجة إليه .. عندما وصل أستفسر من عادل الميكانيكى عن سبب الخلل .. أجابه عادل بالكثير من المصطلحات الفنية المعقدة فهز رأسه و هو يسمعها دون أن يفهم معناها .. متأكد هو أن الخلل طفيف فالسيارة حديثة و لكن تلك هى عادة كل الحرفيين .. يضحون المشكلة طمعاً فى مبلغ أكبر .. أخبره عادل أنه أضطر لتغيير أحد قطع المحرك بقطعة جديدة تكلفتها غالية .. للأسف ليس لديه خبرة كافية فى التعامل مع السيارات للرد على هذا المحتال .. يدرك أن سيارته جديدة و لا تحتاج لأى قطع غيار و خاصة بالنسبة لمحركها .. و لكنه مجبر على مسأيرته .. البديل هو نقاش سيخسره حتماً نظراً لقلّة خبرته .. دفع إليه بالمبلغ الذى طلبه ساخطاً .. مبلغ كبير حقاً لم يتوقعه ..

أستلم سيارته فلاحظ أنها متسخة من الداخل .. هذا الوجد أستعملها بالتأكد
فكتم غيظه .. أنطلق بها لاعناً بينما وقف عادل يودعه بهدوء و هو يمسك
قطعة قماش ضاع لونها يمسح يديه بها مما علق بها من شحم

* * *

أغتسل جيداً .. ينتظر اليوم بفارغ الصبر .. نهاية الأسبوع .. يغلق
ورشته و يتجه إلى قريته البعيدة .. منذ جاء إلى المدينة من سنوات طويلة و
هو معتاد أن يقضى يوم العطلة وسط أهله .. هناك فقط يشعر بالراحة .. لولا
الحاجة و اتساع منافذ الرزق فى المدينة ما فكر فى ترك قريته .. كما أنه
يشاقق لرؤية خطيبته .. ثلاث سنوات من الخطوبة مرت سريعة .. أبتسم
عندما تذكر أن أسابيع قليلة فقط تفصله عن عرسه .. أخيراً أنتهى من تشطيب
بيته الجديد الذى ألتهم معظم دخله .. ثلاث سنوات ارتفعت فيها أسعار
المواد و أجور الحرفيين أكثر من مرة حتى ظن أنه لن ينتهى منه .. " هانت "
هكذا قالها لنفسه .. توجه إلى المحطة بعد أن أبتاع بعض الهدايا .. الجو
ممطر اليوم و الوقت متأخر و لكن هذا لن يمنعه .. لا يريد الانتظار للصباح
حتى لا يضيع وقتاً أطول .. قابله زحام شديد على المحطة .. وعربات
متهاكة تتراص كأحجار نرد قديمة .. وجد مكاناً خالياً بصعوبة بعد أن
أنتظر طويلاً .. السيارة لا تتسع إلا لعشرة أشخاص و لكنهم يكدسون بها
أربع عشر راكباً آدمياً يتنفس .. مهما سافر على هذا الطريق لا يصل إلى بلدته

إلا بعد أن تتحطم أضلاعه من كثرة المطبات .. و الأسوأ منها رعونة السائق الذى يتصيدا و كأن له جائزة على كل مطب يعبره بتهور .. فى منتصف الطريق أخرج عادل الأجرة المعتادة .. تنبه إلى صوت السائق الذى طلب منهم بحزم مضاعفة الأجرة متحججاً بأن اليوم زحام و عدد السيارات قليل .. سرت همهمة أعتراض بين الركاب و لكنها لم تعلو لتصبح مسموعة .. نغمة تتكرر كل مرة فى أجازة نهاية الأسبوع .. يستغلون حاجة الركاب فتتضاعف الأجرة وفقاً لأهوائهم .. تذكر آخر مرة أعترض فيها الركاب على تلك الأتاوة غير المبررة .. أخرج السائق سلسلة معدنية ضخمة من تحت مقعده معطياً للركاب أحد خيارين كلاهما مر .. أما الدفع .. أو مغادرة السيارة فى منتصف الطريق .. نزل بعض الركاب دون أفتعال شجار معروف نهايته مع سائق شبه فاقد للوعى و العقل .. هبط معهم .. أنتظر وسط الحقول لساعات حتى سمع آذان الفجر من مسجد قريب .. لم تسعفه إلا عربة نقل مخصصة لنقل المواشى فى الصباح .. عليه أن يتغاضى اليوم عن هذه الأتاوة منعاً لتكرار التجربة الأليمة .. كما أن الجو ممطر و البرد يتسلل إلى أطرافه .. ما يغيظه أن الموقف نفسه سيتكرر عند العودة و سيدفع مرغماً .. لصوص أولئك الذين يستغلون حاجة الناس بهذا الشكل المهين .. أستمرت الرحلة لساعة قبل أن تلفظهم السيارة على الطريق أنطلق بعدها السائق مخلفاً وراءه سحابة دخان

داكنة من عدم سيارته المتهالكة مسيئاً لبعض الواقفين أزمة سعال حادة

* * *

أسرع السائق إلى منزله طلباً للراحة .. ورديته الأخيرة أستمرت خمسة عشر ساعة كاملة أستعان خلالها بعدد هائل من أكواب الشاي و السجائر و بعض "البرشام" صناعة محلية .. عادة لا يعمل كل هذا الوقت و لكن اليوم نهاية الأسبوع و الربح مضاعف .. أستقبلته زوجته بفتور بينما لم يستيقظ أولاده بعد .. وضع رأسه على الوسادة و نام بعمق قبل أن تيقظه زوجته بعنف بعدها بأقل من ساعتين .. أنتفض فزعاً .. فتح عينيه بتثاقل و نظر للوهلة الأولى إلى الكائن الذى يحاول تنبيهه دون أن يتعرف عليه .. ذكرته بأنه هو الذى طلب منها أن توقظه بعد ساعتين .. نظر فى ساعة يده بعين واحدة .. موعد ورديته الثانية .. اليوم حركة المسافرين كبيرة نظراً لنهاية الأسبوع و المكسب أكبر .. أرتدى ملابسه و هو يترنح من سكرة الأستيقاظ المفاجئ من نوم عميق .. فتح دولابه ليسحب مبلعاً كبيراً من المال .. كل الذى جمعه خلال العامين الماضيين .. اليوم يكتمل مقدم السيارة الجديدة التى طالما حلم بها .. سيارة حديثة تنقله إلى مستوى السائقين الكبار بدلاً من تلك السيارة الأثرية التى يقودها و التى أنفق كثيراً على صيانتها بلا فائدة .. ينوى أن يتوجه اليوم بعد ورديته إلى تاجر السيارات لدفع المقدم .. لم تتاح له الفرصة لرؤية أولاده .. أو تناول أى طعام .. ركب السيارة و أدار المحرك

الذى لم يستجيب سوى فى المرة الرابعة .. أنطلق فى طريقه شبه واعى .. بعد ست ساعات أخرى من الدوران بين القرية و المدينة .. عد أيراده .. و أنطلق نحو معرض السيارات

* * *

متعباً وصل إلى هناك .. متلهفاً لتحقيق حلمه الذى ظل لسنوات يكدح على أمل تحقيقه .. صاحب المعرض مشغول فوقف للحظات يملأ عينيه بمنظر السيارة بهيكلها اللامع الذى تنعكس عليه أضواء المعرض .. سينهى الإجراءات ثم يتوجه بها غداً إلى منزله بعد أن يمر على محل ورد يعرفه جيداً لتزيينها .. عروس جديدة لها واجب الترحيب .. عروس مهرها غال أقتطعه من صحته و قوت أولاده .. قطع تدفق أفكاره صوت صاحب المعرض الأجش يرحب به .. قدم له المبلغ متحمساً .. أرتبك صاحب المعرض قليلاً .. أخبره أن أسعار السيارات زادت و أرتفع معها بالتالى مقدم السيارة التى يحتكر توكيلها .. طلب منه بأسف مبلغ أكبر .. أحس السائق بطعنة تجهض أحلامه .. ظل لفترة محدداً فى وجه صاحب المعرض دون أن ينطق .. لماذا زادت الأسعار بهذا الشكل .. كان هنا من أسابيع معدودة فقط .. كيف توحشت لهذا الحد خلال تلك الفترة الضئيلة .. للم نقدوده و غادر المعرض يجر وراءه أذيال خيبة أحلامه .. الثور عليه العودة لجر الساقية لفترة أطول حتى يستطيع أن يفدى نفسه .. غادر المعرض منكس الرأس يرقبه صاحب

المعرض و هو فى طريقه للخارج بلا أهتمام

* * *

لم يطق الحر الشديد داخل المكتب .. أنتظر طويلاً .. تطلع بنفاز صبر إلى الملفات المكدسة فوق المكاتب .. عاجله الساعى بكوب من القهوة متأملاً أكرامية كبيرة من العميل الذى يعرفه جيداً .. أخبره بتودد أن صابر – الموظف المسئول – على وشك الوصول .. لديه أتماع هام سينتهى بعد لحظات .. تطلع تاجر السيارات إلى ساعته .. أعاد تفحص الأوراق التى جاء بها .. أو التى جاءت به إلى هذا المكتب .. آخر صفقاته .. سيارات مستوردة من الخارج لمعرضه أوقفوها لنقص الأوراق .. قالوا أنها مجهولة المصدر .. مر بهذه المواقف من قبل و يعرف كيفية التعامل معها .. كان يعرف الموظف السابق و لكنه رحل بتهمة الرشوة .. لا يعرف الموظف الجديد .. سجله نظيف كما يقولون و لكن لا بأس من المحاولة .. قلبه معلق بالصفقة لعلها تنقذه من تعثر مالى يهدده .. رشف بتوتر من فنجان القهوة سئ المذاق و هو يفكر فيما سيقوله .. متمنياً أن ينتهى الموضوع كما يريد مهما كلفه

أنهى صابر الأتماع و توجه إلى مكتبه .. يشعر بالأرهاق اليوم .. أضطر إلى الذهاب إلى العمل مشياً بعد أن أستيقظ متأخراً و فاته أتوبيس المصلحة .. و النقود القليلة فى جيبه لا تسمح له بترف ركوب التاكسى .. دلف إلى المكتب

حاملاً الملفات بين يديه .. تفاجئ برؤية شخص يجلس مقابل مكتبه .. رجل ضخم يرتدى حلة غالية و يمسك برشاقة بفنجان القهوة .. جلس على مقعده و تطلع للرجل من تحت زجاج نظارته السمكية .. تحرك الرجل الضخم ما أن رآه .. قدم له نفسه .. تاجر سيارات معروف و صاحب معرض كبير .. ناوله الملف الذى يمسكه بلا كلام .. قلب صابر فى الأوراق قليلاً قبل أن يعيدها مرة أخرى إلى الرجل مبلغاً أياه أن الأوراق غير مكتملة .. أبتسم التاجر أبتسامة كبيرة مصطنعة .. تلفت حوله للتأكد من عدم وجود أحد .. لمح الساعى يقف خارج الغرفة ليمنع أى عميل من مقاطعتهم .. خاطبه بلطف بأنه يعتمد عليه خاصة أن الأوراق تخص صفقة هامة يقوم بها ، و يجب أنهاء الأوراق فى أسرع وقت تحسباً لخسارة مبلغ كبير من المال بسبب غرامات التأخير .. أخبره بصوت منخفض أن المسألة لا تحتاج سوى إلى توقيعه .. نهض بعدها من مكانه فدار حول المكتب .. أخرج ظرفاً صغيراً مكتظاً و دسه بحرص فى درج مكتبه و حرص على أن يكون طرفه مفتوحاً .. نظر صابر إلى كومة الأوراق التى أنبثقت من المظروف منتقلاً بصره بينها و بين التاجر الذى عاد إلى مقعده يدخن بهدوء و كأنه لم يفعل شيئاً .. دخل الساعى فأرتبك صابر قليلاً و لكن التاجر أشار إليه بالأنصراف فأطاعه بسرعة .. الرجل ذو نفوذ هنا أذن و تلك ليست أول مرة .. أنشغل التاجر بالرد على مكالمات طارئة مما

منح صابر بضع لحظات يتمناها و يحتاجها حقاً لأعادة تفكيره المشوش ..
يدرك أن بوسعه إنهاء الإجراءات بجرة قلم منه .. هذه أول سابقة يتعرض
لها منذ أن ترقى و أنتقل إلى المكتب الحالى .. تطلع نحو التاجر لبرهه .. لن
يوفقه شئ .. يعرف هدفه بالتأكيد و يمكنه إنهاء الاجراءات عند مديره أو
حتى من هو أعلى منه .. فكر فى أولاده و زوجته .. نظر إلى ملابسه الرثة ..
تذكر راتبه الهزيل المفروض عليه مواجهة غير متكافئة مع أسعار تتوحش
كل يوم بلا منطق .. معركة خاسرة يدفع ثمنها أولاده .. و تسحق كرامته
يومية .. دائرة ملعونة تحكم حلقاتها حول كل شريف مثله و لا تعرف
الرحمة لكل من هو خارجها .. و الحل الوحيد بعد التفكير هو الانضمام
إليها .. و تساءل و هو يلقي نظرة أخيرة إلى النقود .. تذكرة أنقاده .. هل
بإمكانه حقاً أن يتخلص من مشاكله و يصبح أخيراً جزءاً من هذه الدائرة ..
و..

أنهى التاجر مكالمته بينما كان صبرى يلقي على النقود نظرة أكثر
استسلاماً

حفلة عيد ميلاد

تبذهت من أغفاء قصيرة مقلقة .. نهضت بصعوبة رغم آلامها .. تستند على حافة السرير حتى تستطيع القيام .. وقفت لشوان ثابتة فى مكانها عاجزة عن الحركة قبل أن تستجمع قواها و تتحرك للأمام ببطء و ثبات .. تخرج إلى الصالة الكبيرة .. ترمى نفسها بوهن فوق أول كرسي قابلها ، لكنها تقفز مذعورة عندما تلمح عقارب الساعة تشير إلى الثانية عشر .. للحظات تعيد أستجماع قواها مرة أخرى قبل أن تتوجه بصعوبة نحو المطبخ .. ساعتان و يصل أبنها من العمل .. عليها أن تنهى أعداد الطعام قبل وصوله .. تعلم أنه يأتى جائعاً .. يأكل حتى قبل أن يبدل ملابسه .. هى التى علمته من صغره أن لا يتناول أى طعام فى الخارج .. لم تكن تثق بأكل المطاعم على أى حال .. و رغم ساعات عمله الطويل إلا أنه ينتظر حتى يأتى للمنزل لتناول طعامه معها .. الوقت الوحيد الذى تتمكن من الأجتماع به و رؤيته قبل أن يعاود الخروج لعمله مرة أخرى فى المساء .. ينتابها بعض الحماس .. تشعر ببعض النشاط يدب فى جسدها الواهن .. تشعل الموقد .. لما

يبدو كل شئ باهتاً أمام عينيها اليوم .. ربما من أثر المياه البيضاء التى أهملت طويلاً علاجها .. نصحتها الطبيب مراراً بضرورة إجراء عملية عاجلة و لكنها لا تحب العمليات .. تخاف منها .. زوجها مات على طاولة عملية .. كما أن أولادها دائماً بحاجة إليها .. لا تقوى على البقاء بعيدة عن المنزل و عن أولادها لفترة طويلة .. تبدأ فى غسل الخضروات الطازجة التى أشتراها البواب صباحاً بينما تتصاعد رائحة السمن من أناء وضعته على الموقد .. تلاحظ أرتعاش يديها و هى تمسك السكين لتقطيع البصل .. لم تكن تلك الرعدة تنتابها بتلك القوة من قبل .. يبدو أنها نسيت تناول الدواء .. ستتناوله على أى حال لاحقاً فأمامها يوم مزدحم .. عليها الانتهاء من أعداد الطعام أولاً فأبنها سيعود قريباً .. ثم وضع اللمسات الأخيرة للحدث الذى تنتظره .. عيد ميلاد أبنها الأصغر الذى تحتفل به اليوم

تسمع جرس الباب .. من المؤكد أنها صباح الممرضة .. تمر عليها كل صباح بناء على تعليمات طبيبها .. تمكث معها ساعة أو أكثر .. تتأكد من انتظامها على الأدوية ، و تحقنها بتلك الحقن اليومية المؤلمة التى أوصى بها الطبيب .. تمضى نحو الباب بصعوبة و هى تستند على الحوائط .. تفتح الباب .. طالعها وجه صباح المشرق .. خرج صوتها ضعيفاً رغماً عنها و هى ترحب بها .. قبلتها صباح كالعادة و هى تدلف للداخل .. أعتادت أن تفعل

ذلك دائماً .. و رغم أنها تزورها من عدة أسابيع فقط ، و لكنها تشعر بألفة غريبة معها .. توجهت صباح نحو أريكة فى الصالة لتجلس عليها و هى تعبت فى حقيبتها .. لحقت بها و هى تجر أقدامها بصعوبة .. تبادلا بضع كلمات .. قبل أن تستأذن منها للتوجه للمطبخ للأنتهاء من الطعام قبل موعد وصول أبنها .. تطلعت صباح للساعة بتعجب قبل أن تقول:

-النهاردة الخميس .. مش أبنك بيرجع متأخر فى اليوم ده

تذكرت بالفعل أن أبنها يتأخر كل خميس لحضور أجتتماع أسبوعى فى العمل .. تلوم النسيان الذى يهاجم ذاكرتها الضعيفة بلا هوادة .. تطفى الموقد و تعاود الجلوس مع صباح التى أخرجت بعض الأدوات من حقيبتها .. بدأت بقياس الضغط المرتفع كالعادة .. ثم نهضت معها باتجاه غرفتها لتناولها الحقنة المعتادة .. بمجرد أن دلفت صباح إلى الغرفة حتى وقعت عيناها على جبل الأدوية الملقى بأهمال على منضدة صغيرة بجوار سريرها .. تعلم أنها تعاني من أمراض عدة .. تتذكر آخر زيارة للطبيب و تعليماته التى ألقاها إليها بصراحة:

-لازم تستريح كويس .. و الأدوية تاخذها بانتظام .. أى مجهود زيادة أو أرهاق هيشكل خطر على عضلة القلب الضعيفة .. حاولى تبلغى الكلام ده لأولادها

و لكنها لم تقابل أى من أولادها .. ألفت إليها و هى تتمدد على السرير
بألم .. خاطبتها فى أشفاق:

-أنتى لازم تستريحى .. دى تعليمات الطبيب

لم ترد عليها .. ليست حمقاء أو صغيرة لا تدرك قوانين الحياة .. تعلم أن
مرضها تجاوز مرحلة العلاج و الأمل و بدأت فى مرحلة أنتظار القدر .. كل
ما تريده هو بعض المسكنات حتى تستطيع القيام بدورها .. لن يستطيع ألف
طبيب أن يمنعها من مواصلة القيام بمسئوليتها كأم فى رعاية أبنائها ..
مصدر سعادتها الوحيد فى الحياة الآن .. صحيح أنهم كبروا و لكنهم ما زالوا
يعتمدون عليها .. لن يؤلمها المرض و لكن سيقتلها أن تنتهى سنوات دورها
كأم لأبناء لم ينعموا كثيراً بظل الأب .. تبتسم لصباح و تنهض لتعد لها
مشروب ما .. تكسبها حقنة المسكن عادة بعض النشاط .. تحاول النهوض
فيجبرها ألم مفاجئ على السكون .. ما زالت بحاجة لبعض الوقت حتى
ينتشر مفعول الجرعة بشكل كامل .. تستغل صباح سكونها فتبدأ ثرثرة معها
لا تنقطع بسهولة .. تستسلم لها لنصف ساعة .. بعد أنصراف صباح التى
قبلتها و هى تغادر .. تعود للمطبخ لمعاودة أعمالها .. تمزج الدقيق و البيض
و السكر فى أناء كبير .. تصنع كيكة كبيرة قبل أن تضعها فى الفرن لتنضج
ببطء .. تعود لغرفتها لتناول دوائها الصباحى الذى نسيته

فى طريقها تقع عيناها على غرفة أبنها محمود .. آخر أبنائها .. تتذكر فجأة أمر ما .. تلوم النسيان تلك المرة بقوة أكبر .. تتوجه إلى غرفته .. دائماً تؤجل تنظيف الغرفة حتى قبل موعد قدوم أبنها بساعات فتكون جاهزة لاستقباله .. ترجئ تناول الدواء حتى تنتهى .. أجازة محمود الأسبوعية اليوم .. يأتى غالباً عند الخامسة مثل أخيه .. تجتمع العائلة أخيراً فى نهاية الأسبوع .. يعمل فى بنك كبير فى العاصمة بعيداً عنها .. ينهى عمله مبكراً فيسافر إليها .. يقضى الخميس معها و الجمعة مع أصدقائه ويسافر فى نهاية اليوم .. يوم واحد فى الأسبوع أفضل من لا شئ .. عيد ميلاده منتصف الأسبوع القادم و لكنها ستفاجئه و تحتفل به اليوم .. حملت معها دلو من الماء رغم ثقله .. سقت الزهور التى يهوى زراعتها على حافة نافذته .. نظفت السجاد و فرشت ملاءة جديدة على السرير .. فتحت النافذة لتسمح بدخول الشمس .. مسحت الأرض بعناية ثم رتبت الغرفة .. آلام الظهر تهاجمها بقسوة و كأن عشرات من المطارق الصغيرة تهشم عظامها .. تتنفس بصعوبة و لكنها تواصل العمل .. قاربت على الانتهاء على أى حال .. تعود أن يترك غرفته فى فوضى و لكنها تحب فوضويته .. تمسح بعض الغبار المتراكم فوق الزجاج المحيط بصورته .. يقولون أنه يشبهها كثيراً .. عنيد و قوى الشخصية .. يقولون أيضاً أنها دلتته .. و لما لا و هو آخر أبنائها .. لم

تكن تبخل عليه بشئ .. تعود أن يبوح بكل مشاكله وأسراره لها.. ولكنها كانت أيضاً تقسو عليه أحياناً لمصلحته .. تتذكر عندما ضربته بشدة عندما رسب فى أول أختبار بعد وفاة أبيه ، و لم يرسب بعدها أبداً .. أحب الرياضيات مثلها و شجعتة هى .. ربما كان ذلك هو السبب فى دخوله كلية التجارة ليصبح محاسباً فيما بعد .. لا تتذكر كم مرة سهرت معه فى تلك الغرفة قبيل أمتحاناته .. و عندما حصل على عمل بعيداً عنها و تردد فى الذهاب .. شجعتة و طلبت منه أن يتصرف كرجل لا كطفل ثم بكى عندما خلا البيت منه لأول مرة و نامت ليلتها فى غرفته .. هو أيضاً اعتاد أن يكون قوياً أمام الناس و لكن بداخله قلب حساس .. تتمنى فقط أن لا يشبهها و يرث قلب عليل ضعيف مثلها

ترتب المائدة بحماس .. أسرتها الصغيرة تعاود الاجتماع اليوم .. لم يحدث أن أفترقوا بهذا الشكل .. تعاودها الذكريات .. عند وفاة زوجها راهنوا على فشلها كثيراً .. أم عاملة بدون زوج لم يترك خلفه شئ يذكر.. و طفلين فى أشد مراحل الاحتياج إليها .. كتب عليها أن تقوم بثلاثة أدوار على مسرح حياتها .. أم و أب و عاملة .. أنتظر البعض فشلها و بخاصة أهل زوجها لأسدال الستار و أنتزاع الأطفال منها .. ولكنها صمدت .. صبرت .. و قاومت .. لم تكن صلبة و لكن حبها لأبنائها أورتها صلابه لم تظن يوماً

أنها تمتلكها .. عملها كموظفة حسابات فى شركة كبيرة بالإضافة إلى معاش زوجها الضئيل وفر لها الحماية من ذل سؤال الناس .. ألحقت أبنائها بمدارس خاصة تنتهى يومها الدراسى متأخراً حتى تستطيع إنهاء عملها بعد الظهر و التوجه للسوق ثم اصطحابهم بعد المدرسة .. أجهدها الأمر فى البداية و أستنزف قواها .. خاضت حرب طويلة مع أهل زوجها بعد إعلانهم نيتهم ضم الولدين إلى أحضانهم .. كادت أن تستسلم و لكن خوفها على أبنائها زادها أصراراً .. و أنتصرت فى النهاية على حساب أشياء مهمة تراجعت كثيراً فى قائمة أولوياتها خلف أبنائها أولها صحتها .. ضحت بالزواج .. و قبله بمال ربما كان كافياً لإنهاء كل أزماتها عندما عرض عليها رئيسها فى العمل التلاعب فى حسابات الشركة للتهرب من الضرائب .. لم يكن ضميرها الذى منعها فقط ، و لكن خوفها أن ترى أجساد أبنائها و هى تنمو أمامها من حرام ما جعلها تصر على الرفض بحزم .. اضطرت للانتقال إلى وظيفة أخرى بعد اضطهاد رئيسها السابق لها .. زادت أعبائها و لكنها لم تستسلم .. هاجمها المرض مبكراً فأسلمت له قلبها و لكنها لم تسمح له أن يضعف من عزيمتها .. وفرت لأبنائها كل ما يحتاجونه قدر أستطاعتها .. لم تسمح يوماً بدخول غريب إلى بيتها .. تعلمت أن تستذكر لهم دروسهم حتى لا تحتاج إلى مدرس خاص ينتهك حرمة بيت تسكنه امرأة بلا رجل .. ربت

أولادها على الأخلاق .. منحتهما الثقة من الصغر .. لم يشعر أى منهما أنه أقل من غيره .. حتى أبناء الجيران كانوا يحسدون أبناءها أحياناً .. ندمها الوحيد أنها لم تنجب لولديها أختاً تكون أم صغرى لهما ، و تواصل بعض دورها بعد رحيلها .. صعب عليها حقاً أن لا يجتمع أولادها إلا مرة فى الأسبوع ولكنها تعى طبيعة الحياة .. ليس ذلك وقت الذكريات .. هزت رأسها وهى تخاطب نفسها .. اليوم يوم الأحتفال بأبنها .. عيد ميلاده الذى تحرص على الأحتفال به سنوياً منذ صغره

نظرت إلى الساعة عندما أنتهت من ترتيب الغرفة .. كانت الثالثة .. هل الوقت أصبح يمضى بسرعة أم تراها هى التى أصبحت بطيئة أكثر من اللازم .. أمامها أقل من ساعتان حتى يعود أبنها الأكبر من عمله .. و بعدها بدقائق يصل الأصغر .. ما زال أمامها الكثير لتنجزه بعد .. توجهت إلى المطبخ لتتأكد من نضج الكيكة التى أعدتها للمناسبة .. أسرع لتبديل ملابسها .. ما زال عليها شراء بعض الحلوى و الأغراض الأخرى .. لا تثق بذوق البواب .. ستقوم بذلك بنفسها .. عندما أنتهت من تغيير ملابسها كانت تلهث و كأنها أنتهت للتو من سباق طويل .. على باب المنزل تذكرت أنها لم تتناول جرعة الدواء بعد .. فلتتنظر حتى تعود .. تستند على سور الدرج .. تهبط على قدم واحدة بعدما تحطمت الأخرى من سنة أثر أنزلاقها

فى الحمام و لم تلتئم عظامها المسنة بعد بشكل جيد .. أستغرق الأمر عشر دقائق كاملة لترى ضوء الشارع .. تفاجئها حرارة الجو .. و الشمس التى أجبرتها قوتها على أغماض عينيها لوهلة .. تشق طريقها بتأن و صعوبة نحو محل بعيد تعرفه جيداً رغم وجود محلات مثله قريبة ، و لكن بضاعتها ليست بنفس الجودة .. وصلت هناك و هى تسمع صوت حشرجة فى صدرها بدلاً من صوت التنفس .. صدمها جو المحل المكيف فوقفت لتلتقط أنفاسها قليلاً .. أنتقت مجموعة و أشارت للبائع بتغليفها .. حملت الأكياس الكبيرة للخارج .. هل زادت حرارة الشمس أم ضعفها هو الذى يهين لها هذا .. توجهت بصعوبة لمحل آخر أبعد لشراء بعض الأغراض و هى تلتقط أنفاسها بصعوبة .. أختارت شمعاً على هيئة عدد سنوات أبنها الجميلة فى حياتها .. أشترت بعض العصائر و المشروبات الباردة و معها أغراض أخرى .. لم تنتبه إلى أن الحمل أصبح ثقيلاً إلى حد ما .. سارت بببطء فى طريق عودتها .. عبرت الشارع بصعوبة لتدلف إلى محل عطور أختارت منه زجاجة عطر غالية يحبها أبنها .. طلبت من البائع أن يغلفها على شكل هدية .. لم تنسى أن تشتري زجاجة أخرى لأبنها الأكبر من النوع الذى يفضلها أيضاً .. اليوم تحتفل بهما معاً .. هكذا اعتادت فى كل مناسبة .. حملت الأغراض و توجهت للخارج .. يجبرها الحمل الثقيل على أن تسير

بتمهل .. بدأت تسمع صوت تنفسها العالى .. تشعر بقلبيها ينبض بقوة أكبر .. ربما بسبب الحفل الذى تعده و تنتظره .. ولكنه ينبض بألم و كأن وتد معدني بارد يخترقه ببطء .. تتجاهل الأمر .. أزدادت حرارة الجو و لا وجود لظل فى الشارع .. لن تتوقف على أى حال للأستمتاع بالظل و الوقت يداهمها .. أمتار قليلة فقط و تصل لبيتها .. تصلبت يداها و برزت الشرايين منها و هى تتشبث بالأكياس .. دقائق و تصل لوجهتها .. تحاملت .. ترى معالم الطريق باهتة أكثر من اللازم .. الصور أمامها بلا تفاصيل .. يبدو أنه من أثر المياة البيضاء التى تراكمت على عينيها .. ينحني ظهرها قليلاً تحت ثقل الحمل و هى التى أعتادت أن لا تمشى إلا مرفوعة الرأس .. تشعر بحرارتها ترتفع .. تلهث .. خطواتها تبطئ بالرغم من أنها تبذل مجهوداً أكبر .. يصيب قدميها ثقاقل خبيث .. لا تريد أن تتوقف .. ترى البناية من بعيد فتشعر أنها على بعد أميال .. تستنشق أكبر كمية من الهواء لا ينفذ إلى صدرها منها إلا القليل .. لم تعد تسمع ضوضاء الشارع .. يغطى صوت ضربات قلبها العالى على أى صوت آخر .. ما زالت تشق طريقها رغم ذلك .. تحاول أن تنظر للوقت و لكن الصورة تبهت تماماً .. الألم ينسحب و يتجمع عند قلبها .. الهواء رغم وفرة لا ينفذ إليها .. تدريجياً يكسو اللون الأحمر عيناها فيكتسى كل شئ بنفس اللون الدامى .. رجفة تسرى فى أطرافها ..

عندما تنجح أخيراً فى الوصول إلى مدخل البناية .. تفشل فى الأبقاء على توازنها .. تتعثر .. تضعف مقاومتها .. و رغماً عنها تنهاوى ..

علمت صباح بما حدث فى اليوم التالى .. وجدوها أمام مدخل البناية بعد أن تهاوت على الأرض و يدها ما زالت متمسكة بما تحمله .. لم يستطع الطبيب أن يفعل أى شئ .. و تكفل أقاربها بكل الإجراءات

رغم توقعها بحدوث ذلك إلا أن الأمر صدمها .. صدمها أكثر أن تفقدها بعد أن تعلقت بها و أحببتها .. فى المساء مرت على بيتها .. أنتابها الألم حقاً و هى ترى سرداق العزاء أمامه .. أنهالت دموعها رغم عنها على المرأة الطيبة التى عرفتها لأيام فتركت أثراً لا يمحو من قلبها .. أمام السرداق الكبير يقف بعض الرجال .. لم تعرف منهم أحداً إلا البواب .. رجل منهم يرتدى بذلة أنيقة يقف فى صدر السرداق يتلقى التعازى من الجميع .. لم تقع عيناها عليه من قبل .. خرج البواب فى تلك اللحظة ليحمل بعض الكراسى فتوجهت إليه .. سألته عما حدث .. تماكنت نفسها بصعوبة و هو يحكى .. عندما أنتهى سألت عن أبناءها لتقديم العزاء .. أشار البواب إلى الرجل الذى يرتدى البذلة .. أبنها الأكبر .. تطلعت إليه .. صمتت لبرهه .. هزت رأسها قليلاً ثم قالت:

-أول مرة أشوفه .. رغم أنى كنت بزورها يومياً

نظر إليها البواب فى دهشة .. قبل أن يصيح:

-تشوفيه ازاي إذا كان هو مهاجر فى كندا من خمس سنين

لثوان نظرت إليه فى ذهول .. رددت بلا وعى:

-مهاجر .. ازاي

تمالكت نفسها قليلاً .. تطلعت نحوه لبرهه دون أن تتكلم .. سألته

بصعوبة:

-لكن عمرها ما قالت أنه مسافر قبل كده .. وأبنها التانى ؟

رد عليها وهو يواصل نقل بعض الكراسى : مسافر فى دولة عربية ..

جاله عقد عمل بعد ما سافر أخوه بكام شهر .. نزل بعدها بسنة أتجوز و

سافر هو و مراته .. و من ساعتها ما رجعوش ..أبنها الكبير بس لما عرف

رجع النهاردة الصبح ، و التانى أحتمال يوصل بكرة .. الله يرحمها كانت

طيبة .. ما حدش عارف ليه نزلت أمبارح بنفسها رغم مرضها .. تحبى

تروحي تعزى أبنها

حمل الكراسى بعدها متوجهاً سريعاً إلى السرداق تاركاً أياها خلفه بلا

أجابة

التحدى

أحب التفاؤل و أنظر للحياة دائماً بنظرة إيجابية .. عكس صديقى المتشائم أغلب الوقت .. جلسنا يوماً فى منزلى نثرثر و نشاهد التلفاز بعد سهرة عائلية .. كنت على وشك متابعة نشرة الأخبار عندما رأيت علامات الاعتراض على وجهه .. طلب منى تغيير المحطة فوراً .. سألتنى بأستهجان عن سر متابعتى لنشرات الأخبار بشغف رغم ما تمتلئ به من كوارث و مآسى .. أدرك أن صديقى متشائم بطبعه و إن كان يفسر هذا دائماً بأنه واقعى .. أجبته بثقة - لا أعلم مصدرها - بأن ليس كل ما تحتويه النشرة أخبار سلبية .. فأحياناً تأتى بالعديد من الأخبار الجيدة أيضاً .. طلبت منه أن ينظر لنصف الكوب الممتلئ .. أعتدل فى مكانه و ضحك بلا سبب .. تحدانى ببساطة أن نثرثر على خبر واحد جيد فى كل نشرات الأخبار التى يعرضها التلفاز .. كان التحدى مفاجئاً .. خصوصاً من صديقى الذى لم أنجح يوماً فى هزيمته فى أى رهان بيننا من قبل .. تحمست للفكرة و قبلت التحدى الذى عرضه على الفور

لم يكن يهمنى الرهان بقدر أن أثبت خطأه .. أسترخى على مقعده بهدوء
بينما أمسكت ريموت التلفاز بيدي و كأني أمسك سيفاً أستعداداً لمعركة ..
أنطلقت النشرة بالأخبار العامة .. مجموعة منتقاة من الكوارث أحبطتني ..
رأيت أبتسامة سخرية ترسم على وجهه .. أنباء فيضان تعقبها صور
حصرية لزلزال حديث .. علاقات متوترة بين بعض الدول .. مشاهد دمار
أخرى و لكن هذه المرة لكوارث بشرية خلفتها حروب دول .. أنتقلت إلى
أخبار الأقتصاد المحلية .. عجز و ديون .. تضخم و مؤشرات على فساد مالى
يضرب أى جهد لأصلاح أقتصاد متعثر .. رأيته يتابع حماسى بهدوء .. لن
أياس سريعاً .. غيرت المحطة بسرعة على نشرة أخبار أجنبية

طالعت تصريحات عن تدخل أجنبى جديد فى بلد أفريقى تعمه
الفوضى .. تعثر مفاجئ لمفاوضات السلام المحتضرة .. ثم القبض عل مجرم
خطير أغتصب العديد من النساء .. و إطلاق نار داخل مدرسة .. تحاشيت
النظر لوجه صديقى بصعوبة .. لجأت هذه المرة إلى محطة عربية .. مظاهرات
يتم قمعها بسرعة .. القبض على عدد من زعماء المعارضة فى بلد آخر .. و
أغتيال عالم بارز فى ظروف غامضة .. تطلعت بطرف عينى لصديقى ..
أستفزنى هدوئه .. زاد أصرارى .. قلت له بتصميم لا أعلم مصدره أنى لن
أترك جهاز التحكم من يدي حتى يسمع أكثر من خبر جيد .. هربت إلى

الأخبار المحلية .. وسط فيضان من الأنباء المثيرة للغثيان .. ألتقطت أذنأى أول خبر جيد .. زيادة كبيرة فى الأجور لموظفى الحكومة .. أبتسمت أخيراً .. ألتفت لصديقى .. أشرت إلى الخبر المفرح .. لم يعلق وظل هادئاً .. لا أعلم لماذا لم يسعده الخبر رغم أن الزيادة ستطول راتبه بأعتباره من موظفى الحكومة .. أخذتنى شهوة الفوز و صممت على تأكيده بالعثور على خبر آخر .. أنتقلت كثيراً بين القنوات حتى عثرت على خبر القبض على مسئول كبير بتهمة الفساد .. قلت له أن هذا الخبر أكثر من جيد .. هز رأسه بالنفى .. قال أن الخبر الجيد هو عدم وجود فساد من الأصل .. لم أجادله رغم عدم موافقتى على رأيه .. تابعت التنقل بين القنوات أكثر .. كدت أياس .. وصلت لقناة رياضية .. منتخبنا يفوز فى مباراة هامة فى تصفيات المونديال .. يقترب أخيراً من حلم الصعود لكأس العالم بعد أبتعاد طويل .. كدت أقفز فرحاً .. لم يحاول أن يجادلنى هذه المرة .. أكتفى بهز كتفيه بلا مبالاة .. كنت أتمنى أن يعترف بخطأه و لكنه لم يفعل .. سألته ماذا سيقدم لى بعد أن كسبت الرهان .. الخاسر دائماً فى أى تحدى بيننا يختار هدية رمزية لتقديمها للمنتصر .. ضحك قائلاً أنه سيأتينى بهدية " لائقة " فور أن يقبض راتبه الجديد بعد الزيادة .. لم تهمنى الهدية حقاً بقدر أن أرى نظرة الهزيمة فى عينيه لأول مرة أعترافاً بخطأه .. و لكن لدهشتى ظلت أبتسامه

السخرية نفسها مطبوعة على وجهه

ذهبت فى اليوم التالى لشراء بعض الأحتياجات .. تفاجئت أن أسعار معظم السلع زادت بنسب متفاوتة .. كيف يحدث أمر كهذا بين يوم و ليلة .. علمت من أحد البائعين أن كبار التجار رفعوا أسعار البضائع أمس بعد علمهم بنباً زيادة الرواتب .. تباً لهم .. لم أقبض أول راتب بعد الزيادة و الأسعار انطلقت محلقة عالياً بشكل جنونى .. كان الراتب السابق يكفينى بالكاد أما الآن فأحتاج إلى حاسبة معقدة .. تمنيت وقتها لو لم تأت تلك الزيادة المشنومة بعدها بعدة أيام قرأت أن المسؤول الكبير الذى قبضوا عليه بتهمة الفساد قد أخلت النيابة سبيله بعد عدم ثبوت أدلة كافية عليه .. و رغم حساباته المتضخمة فى البنوك وسمعته السيئة التى تسبقه دائماً .. إلا أنه خرج من القضية بشكل قانونى محترف .. بل وعاد للظهور على مكتبه محمولاً على الأعناق .. و رأيت صورة له فى أحد الجرائد و هو يبتسم أبتسامة واسعة ذكرتنى بأبتسامة صديقى الساخرة

أتصلت به و أنفقت على مقابلته على المقهى .. كان المقهى مزدحماً حيث يتابع الجميع بلهفة المباراة الأخيرة لمنتخبنا فى التصفيات و التى خسرها بكل جدارة وسط سباب الحاضرين .. تحول الحلم إلى كابوس كالعادة .. عندما قابلت صديقى بعد المباراة .. تعمدت أن لا أتكلم عن الرهان السابق

بيننا .. تمنيت أن ينساه تماماً .. لن أستطيع الدخول معه فى جدال سأخسره مجدداً .. أقبل و هو يحمل علبة متوسطة الحجم مغلفة بعناية .. تفاجئت به يناولنى أياها قائلاً أنها الهدية التى وعدنى بها .. فتحت الهدية أمامه بلا كلام .. تناولت من داخل العلبة منفضة سجائر أنيقة .. وكبيرة الحجم بشكل لفت نظرى .. باستفسار نظرت إليه .. يعلم أننى لا أدخن كثيراً .. بل وبدأت أفكر مؤخراً فى ترك التدخين بشكل نهائى .. قرأ على وجهى علامات الاستفهام .. نظرت للهدية ثم قال لى بهدوء أنه يعلم مدى عشقى لمشاهدة التلفاز وبخاصة الأخبار .. فرأى أنى سأحتاجها ! .. تطلعت إليه بصمت .. تفرست فى ملامحه جيداً .. كان جاداً و لم يكن على وجهه أى تعبير من التهكم .. لم أعلق .. أعدت وضع هديته فى العلبة المغلفة بورق الهدايا .. وضعتها بجانبى .. شكرته عليها بأقتضاب .. و ..

لم أعد أتابع نشرات الأخبار من وقتها

الوانتى

كنت طوال عمرى واشياً .. لا أخجل من قول هذا .. بعض الناس يطلقون على جاسوس .. خائن .. عميل .. حاقدون هم لا أهتم بهم .. و لا أهتم بالألقاب طالما أحصل على ما أريده

كنت قد بدأت أتخلص من تلك الصفة قبل ان أتوجه للكلية ذات يوم فى سنتى الدراسية الأول هناك .. تفاجئت بمظاهرات و اضطرابات تعم الجامعة .. مجموعات كبيرة من الشباب يحيط بهم أمن الجامعة المتربص دائماً لأى حركة احتجاج طلابية .. أصوات الطلاب ترتفع بحماس لتهز أرجاء الجامعة بينما شعاراتهم تنتشر فى كل مكان .. أرتفعت حدة التهديدات قبل أن يحيط جنود الأمن المركزى الذين هرعوا إلى المكان بكل مداخل الجامعة و مخارجها .. أطلق الأمن جنوده المسعورة على الطلاب .. أرتفعت الهراوات و العصا الغليظة تنهال عليهم من كل جانب .. صمد الطلاب قليلاً قبل أن تزيد حدة الضربات .. هرب الكثيرون منهم تحت وطأة

الآلم .. كنت وقتها فى مكتب أحد المعيدين .. أندفع أحد الطلبة للداخل و
الدماء تسيل من رأسه .. كان يلهث و يتضرع إلينا بنظراته .. تطلع إليه المعيد
قليلاً بتردد ثم أسرع يطلب منه الأختباء خلف مكتبه الضخم .. تناهى إلى
سمعنا بعدها بقليل وقع أقدام ثقيلة قبل أن يركل أحدهم الباب بقسوة
بقدمه .. هب المعيد ناحية الباب ليمنع دخول جنود الأمن المركزى .. سألته
أحدهم بغلظة عما إذا كان رأى أحد الطلاب الفارين .. هز المعيد رأسه
بالنفى .. جالوا فى المكان بأبصارهم للحظات قبل أن يهموا بالمغادرة .. كنت
أرى من مكانى الطالب و هو يرتجف خوفاً .. كانوا على وشك الخروج بالفعل
عندما صحت فجأة .. أشرت لهم بمكان الطالب .. أنقض الجندى بتحفض بعد
أن أزاح المعيد بخشونة أوقعته على الأرض .. صرخ الطالب فى فزع عندما
جذبوه من ملابسه .. نظر إلى بلا فهم و هم يجروه خارجاً .. وجدتنى أبتسم
بلا وعى .. أبتسامة كبيرة تجمع بين السخرية و الشماتة أرتسمت على
وجهى فجأة لم أعلم مصدرها و إن أصبحت مميزاً بها بعد ذلك .. و شعرت
براحة لم أفهمها

بالطبع أختفى الطالب لفترة طويلة .. أما المعيد فقد تم تحويله
للتحقيق .. لم أحصل على مقابل لما فعلته .. و لكنى لم أهتم .. فى الواقع لم
يكن الأمر جديداً على .. لم أفهمه .. و لكنه بدأ معى منذ طفولتى و كأننى

ولدت به .. يسرى فى دى .. كانت أختى دائماً تقول أننى جئت للعالم
واشياً .. و لم تكن تغضبنى الكلمة .. فمنذ بدأت أتكلم و أنا أنقل لأبى كل
أخبارها .. أو بالأصح أخطائها .. بل أنى كنت أظل أتبعها أحياناً بألحاح
حتى أعثر على خطأ ما لأسرع بأبلاغ أبى به بسعادة .. و كانت دوماً تتلقى
العقاب بسببى .. و عندما ذهبت للمدرسة تطور الأمر معى من الوشاية
بشخص واحد إلى الوشاية بفصل بأكمله .. كان المجال هنا أوسع .. و الأخطاء
أكثر .. أتذكر عندما كان يحلو للطلبة أحياناً تقليد المعلمين أو إطلاق أسماء
ساخرة عليهم .. كنت أضحك معهم بل و أشاركهم أحياناً .. ثم أتوجه إلى
المعلم أو المعلمة فوراً فى أقرب فرصة و بشكل لا يثير الريبة .. لن أنسى كمال
أفضل أصدقائى يوم أطلق على معلم اللغة العربية أسم " كعبول " .. كان المعلم
طويلاً و سميناً يلقي بالأوامر طوال الحصة دون أن يستطيع مغادرة كرسيه
بسبب سمنته .. و كان يهوى دائماً ضرب الأولاد .. تفاجئ كمال فى الحصة
التالية بالمدرس يناديه .. أصطحبه خارج الصف .. لم نسمع سوى صوت عصا
الأستاذ و هى تلوح فى الهواء و تسقط على يد كمال الذى أخترق صراخه
آذاننا .. بالطبع لم يعلم كمال بمن وشى به .. و لكننى واسيته بحرارة
كصديق مخلص .. و فى أمتحان اللغة الإنجليزية .. لمحت زميلى مراد يغش
من زميلنا محمود المتفوق دائماً .. رأيت محمود يكتب له الأجابات على

المنديل ثم يرسلها له من تحت الطاولة .. لمحت المراقبان وهما مشغولان بالكلام .. لم ينتبه أحدهما لما يحدث .. ناديت على المراقب بحجة أنى أريد سؤاله عن شئ ما غير واضح فى الاختبار .. بمجرد أن أقترب منى حتى تعمدت أن أتكلم همساً .. أشرت له إلى زميلائى الذين يقومان بالغش .. لف المراقب بعدها دورة كاملة حول الصف .. أنتظر لدقيقة .. عندما هم مراد بأخراج المنديل لنقل الأجابات منه .. أنقض عليه فجأة .. وتم تحرير محضر غش فوراً .. ولأول مرة يرسم زميلى محمود .. ورأيتة يبكى منهجاً بعد الامتحان حتى كاد يغمى عليه .. نظرت إليه و أرسمت على وجهى نفس الابتسامة التى عجزت دائماً عن أخفائها رغم محاولاتي

و توقف هذا الأمر قليلاً عندى أيام الثانوية .. و ظننت أننى تخلصت من هذه الصفة .. حتى ذهبت يوماً بعد المدرسة إلى درس الكيمياء .. أحد زملائنا لم يكن موجوداً .. أعتاد أن يتغيب باستمرار طوال الفترة الأخيرة .. سألت عليه .. أخبرونى أنه يهرب من حضور الدرس فيبقى ثمناً لنفسه ليمرح مع زملائه على المقهى .. أنتابتنى حالة غريبة و شعور بعدم الارتياح ظل يلزمى .. سألت طويلاً حتى عرفت عنوان بيته .. ذهبت إلى هناك على الفور و طرقته الباب .. فتح لى أبيه .. عرفته بنفسى بصفتى صديق ابنه و سألته ببراءة عنه .. أخبرنى الأب أنه ربما يكون فى درس الكيمياء الآن ..

تصنعت البراءة أكثر وأنا أخبره أنني جئت للتو من درس الكيمياء و لم يكن هناك .. كما أنه لم يحضر من فترة .. بالطبع تخيلت ما حدث .. فقد غاب زميلي بعدها لفترة .. وأصبح أباه يصطحبه لكل درس بعدها .. بالطبع علم أنني السبب وراء هذا .. و لم يغفر لى .. و عندما تقابلنا أرتسمت على وجهى بلا أرادة نفس أبتسامتى الساحرة .. و زال عنى الشعور بعدم الراحة الذى كان يلزمنى .. و توقف الأمر لفترة قبل أن يعود مرة أخرى فى الجامعة

أصبحت أكثر احترافاً فى الكلية .. كنت معروفاً لأمن الكلية و للأساتذة .. العين المدربة التى ترى بها كل ما لا تستطيع رؤيته عن أنشطة الطلاب .. و ظل الأمر سراً لفترة قبل أن ينكشف أمرى .. فى الواقع لم أحصل على أى مقابل أو مزايا خاصة نظير عملى .. لكننى كنت أقوم به بأخلاص شديد .. فى آخر عام لى فى الجامعة كنت أرى نظرات الكراهية و اللوم من الجميع تجاهى .. و لكنى تعودت عليها .. لما يكرهوننى هؤلاء الحمقى ..

يرتكب البعض الحماقات ثم ينتابهم الغضب عندما يكشف أحداً أخطائهم تلك للعالم .. فما الداعى للقيام بالخطأ من البداية ؟ و هل ذنبى أنهم يسيئون التصرف و السلوك ؟ ثم لماذا يلقون باللوم دائماً على من يفضح أخطائهم و لا يلقون باللوم على أنفسهم أبداً لأرتكابها .. من الأولى بالقاء اللوم عليه .. و هكذا تكونت فلسفتى الثابتة فى الحياة .. أنا شخص أساعد الناس .. فكلما

كشفت أخطاء الناس كلما قل تكرارهم لها ، على الأقل خوفاً من عواقبها عند اكتشافها .. و تخرجت من الكلية بتفوق و لكن دون صديق واحد

و أستلمت عملى الجديد .. و نشطت أكثر .. فهنا الوشاية لها ثمن و قيمة .. و هى مفتاح الصعود لأعلى و أكتساب مكانة خاصة لدى رؤسائك فى العمل .. هى أقصر طريق مختصر للنجاح .. و لم يكن أحد هنا يعلم بماضىي الملى بالوشاية .. و أصبحت أنقل لرؤسائى فى العمل كل ما يدور خلف ظهورهم و كل ما يحكى عنهم وراء الأبواب المغلقة .. و حصلت على أول ترقية فى وقت قياسى .. و ازدادت شهيتى للعمل أكثر .. و تعلمت كيف أسجل كل شئ داخل عقلى .. كل كلمة .. كل تنهيدة .. كل دعاء على شخص ما أو أستمطار بالعنات عليه .. و تعلمت كيف أخرجها فى الوقت المناسب .. الغريب أننى لم أجد صعوبة فى حفظ أى شئ يخص غيرى فى ذاكرتى التى تعانى من الضعف بشكل كبير

و أصبحت مشهوراً عند رؤسائى .. نشطت بشكل أكبر .. و علمنى العمل أن هناك طريقان للوصول إلى قلب أى رئيس .. النفاق و الوشاية .. و لم أكن منافقاً .. و لم أحاول هذا .. بل أننى كنت أكره المنافقين .. الفئة التى تتحصل على مكانة عالية بسهولة دون أن يبذل أحدهم جهداً كالذى أقوم به فى مراقبة الناس .. و تحسنت أحوالى المالية بعد عدد من الحوافز لكفائتى فى

العمل .. و أتاح لى القدر فرصة لم أكن أتوقعها .. كان هذا من فترة طويلة عندما أصبح كرسى الرئاسة فى الشركة التى أعمل بها فارغاً بعد اقتراب شاغل المنصب من المعاش .. كان أمراً نادراً أن يصبح المنصب فارغاً .. وقع خلاف شديد بعدها بين أثنان من رؤسائى فى العمل حول أحقية أى منهما فى الحصول على أكبر منصب فى الشركة .. الفرصة التى لا تتكرر كثيراً .. و أجهت الأعين تتابع الصراع الدائر بينهما .. و درات مباراة تحدى خاصة بين العاملين للرهان على المنصب الشاغر الحائر بين كل منهما .. و أنحاز كل عامل لطرف .. كان التنافس على أشده بينهما قبل أن أتدخل .. كنت قد اخترت الطرف الذى أنحاز له .. و لم يكن أنحيازى له بناء على كفاءته فى العمل أو لأننى توسمت أنه الأفضل .. و لكن فقط لأننى كنت أعمل مع غريمه و أعرف عنه الكثير من الفضائح و الأسرار .. و كان هذا من سوء حظه .. أو ربما القدر الذى جعلنى أعمل معه .. و أستطعت أن أنقل كل أخباره إلى منافسه الذى كان ينتظرها بشوق .. و بالطبع أستغل الأخبار و فاز بالمنصب .. بينما توارى غريمه بالاختباء و الابتعاد عن الشركة نهائياً بعد أن تسربت فضائحه .. و قربنى المدير الجديد منه .. ظل محتفظاً بجميلى .. و تصور أننى قمت بهذا أيماًناً منى به .. و لم يكن يعلم طبيعتى .. و دعانى يوماً إلى الغداء فى بيته .. و هناك تعرفت على إبنته .. تحولت حياتى بعدها

تماماً .. فى الواقع أحببتها من أول نظرة .. كانت جميلة و رقيقة .. و تبادلنا
الأعجاب .. و شجعنى والدها على التقدم رغم أمكانياتى المحدودة مقارنة
بهم .. لم أكن غنياً مثلهم و لكننى كنت أتمتع بقدر كبير من الوسامة و
ينتظرنى مستقبل كبير و الأهم أننى حزت على ثقة الأب .. و تم الزواج
سريعاً

يمكننى القول بعد الزواج أننى أصبحت أكثر نفوذاً و قوة .. ولم أعد
أخاف أحد .. باستثناء زوجتى .. ليس فقط لأننى أكتشفت للأسف أنها
سريعة الغضب و متهورة .. أو لأن والدها هو مديرى .. و لكن لأنها أيضاً
تشارك بنسبة كبيرة فى مصروف البيت بعد أن خصص لها والدها مبلغاً
شهرياً حتى يمكنها أن تعيش فى نفس المستوى الذى اعتادته .. و أنجبنا
ولداً جميلاً بعد عام .. و أنشغلت هى به .. و أتاح لى فرصة أنشغالها التحرك
بحرية أكبر .. كنت قد أكتسبت مكانة خاصة داخل العمل و خارجه ..
تعرفت على أوساط جديدة و كونت علاقات متعددة .. دخلت عوالم جديدة لم
أكن أتخيلها و أختلطت بها .. و بدأت أتعرف على لذات أخرى فى الحياة
غير الوشاية و النفوذ .. ببساطة تعرفت على لذة السعى وراء النساء .. كانت
بداية تعرفى على هذا العالم من خلال عملى فى الشركة و أختلاطى
بالعملاء .. ثم تطورت علاقاتى و تشعبت .. و أصبح لى أحياناً أكثر من

عشيقة .. و مرت سنوات على هذا الحال .. و كنت حريصاً على أخفاء رائحة هذه العلاقات حتى لا تصل لأنف أحد .. وبالأخص زوجتى .. و كنت ناجحاً فى الأمر .. كنت أدرك تماماً مدى غيرة زوجتى الشديدة و عصبيتها .. و أن انكشاف أمرى معناه نهاية مستقبلى .. كانت مغامرأتى النسائية مخاطرة بلك تأكيد .. و هذا ما زاد من لذتها

أستيقظت ذات يوم منتعشاً .. بعثت لى عشيقتى صباحاً برسالة تذكرنى بموعدى معها الليلة .. تذكرت أن لدى موعد عمل هام فى نفس التوقيت .. اضطرت للاتصال بها لتأخير الموعد قليلاً و تغيير مكان السهرة .. عادة لا أقوم بأى اتصالات من البيت من باب الاحتياط .. و لكنى كنت قد تأكدت أن زوجتى فى الحمام و أبنى منشغل بأستذكار دروسه بجوارى .. عندما رجعت فى المساء بعد أمسية رائعة .. تفاجئت بزوجتى تقف فى أنتظارى .. كنت أجدها عادة نائمة فى مثل هذا الوقت .. تظاهرت بالبراءة .. باغتتنى بسؤالها عن المرأة التى سهرت معها .. أرسمت على وجهى علامات الدهشة و الأنكار .. كنت معتاداً على هذا بأى حال .. تنتابها أحياناً نوبات من الشك و لكنى أستطيع القضاء عليها بسهولة .. كنت على وشك نفى التهمة عندما باغتتنى بما لم أتوقعه .. تفاجئت بها تعرف أسم عشيقتى و المكان الذى سهرنا فيه .. بل و بموعد لقائنا .. و قفت تنتظر ردى و الشرر يتطاير من

عينها .. شلتنى المفاجأة عن التفكير .. هل كانت تراقبنى .. هل كلفت أحد بملاحقتى .. كيف عرفت بكل تلك التفاصيل .. هل وشى بى أحد .. بدأت أرى سحب الغضب تتجمع على جبينها .. أعلم جيداً أن مستقبلى قد يحرقه فيضان عصبيتها الآن .. لا أعلم ما الذى عرفته أيضاً بعد أن علمت بكل تلك التفاصيل و لهذا أطبقت فمى ولم أستطع الكذب .. وقفت كورقة فى مهب الريح .. نظرت للأرض مذنباً بلا كلام أستعد للعاصفة القادمة التى ستنقلعنى بلا رحمة .. لمحت أبنى الصغير ذو الخمس أعوام .. لأول مرة ألاحظ وجوده معنا منذ بدأ النقاش .. نظرت إليه بحب و أشفاق .. لم أرغب أن يشهد موقف كهذا .. كان يقف خلف والدته تماماً .. ورغم ما أمر به و ما ينتظرنى فى تلك اللحظة .. لاحظت شيئاً غريباً دفعنى لأن أدقق النظر فيه .. رأيته و قد أرتسمت على وجهه ابتسامة غريبة .. ابتسامة تجمع بين السخرية و الشماتة و احتلت جزء كبير من وجهه الطفولى المحبب البرئ ..

ابتسامة أعرفها جيداً بالتأكيد

الوحش

كنت أصعد الهرم وأنا أمسك يدها .. من ورائنا باقى الطلاب و خلفهم الأستاذ عبود .. ترددت عند المدخل و توقفت تماماً .. خاصة عندما رأيت المكان شبه مظلم .. لاحظت المعلمة أرتباكى .. حاولت أن تتقدم ولكنى أفلت يدها و تراجعت خطوة للخلف .. تطلعت إلى بدهشة .. أنحنت و جلست على ركبتيها وأنا أنظر إلى الأرض بخوف .. بيدها رفعت وجهى إليها و أبتسمت .. سألتنى عن سبب توقفى بنبرات هادئة .. ترددت قليلاً وأنا أرى الأطفال من خلفى و قد بدأ بعضهم فى السخرية منى .. أخبرتها بخجل أنى أخاف من الظلام .. ضحكت برفق .. أحتضنتى لبرهة قبل أن تأمر باقى الطلاب بالدخول مع الأستاذ عبود و أنتظرت هى فى الخارج معى .. جلست على صخرة بجوارى و هى تدارى وجهها الجميل من أشعة الشمس الحارقة .. و أحتضنتنى بجوارها

كنا فى رحلة مدرسية للهرم .. فرحت جداً عندما أعلنوا عن الرحلة فى

مدرستنا .. عرفت بعدها أنها مخصصة لطلاب الصف الرابع فقط بينما ما زلت فى الصف الثانى .. رأيت أختى و هو يستعد للرحلة فتملكنى غيظ مفاجئ .. كثيراً ما تمنيت زيارة الأهرامات و رؤية هذا التمثال الذى يطلقون عليه أبو الهول .. خصوصاً أن معلمة الرياضيات كانت تصفنى دائماً بأبو الهول عندما أجلس ساكنة طوال الحصة و لا أشارك فى أى نشاط رغم تفوقى .. ظللت أسبوعاً لا أنام و حولت حياة أسرتى إلى جحيم و أنا أبكى من عدم ذهابى .. حاولوا أقناعى كثيراً أن بأمكانى الذهاب للرحلة لاحقاً عندما أكبر و لكنى لم أصدقهم .. لم يجد أبى مفرّاً من الذهاب للمدرسة .. طلب من إدارة المدرسة السماح لى بالذهاب للرحلة مع أختى الأكبر رغم معارضة أمى .. أحب أبى لأنه يدلّنى كثيراً و يلبى معظم طلباتى التى تبدو غريبة .. و لأن مدير المدرسة صديقه فوافق على منحى هذا الاستثناء .. ما زاد من سعادتى هو علمى بوجود مس أحلام فى الرحلة .. أعرفها جيداً و أحبها و هى أيضاً تحببى .. قامت بتدريسى من قبل فى الصف الأول و لكنها أنتقلت هذا العام إلى الصف الرابع .. لم أكن أذكرى تلامذتها و لكنى كنت متفوقة .. أشارك كثيراً فى الأذاعة و يقولون أنى موهوبه و صوتى رائع .. أحفظ الأناشيد بسرعة و أغنيها فى برنامج الصباح بثقة

رأيت أبو الهول .. لم أتوقعه بهذه الضخامة .. تساءلت لما تشبهنى

معلمتى به رغم أنى لست ضخمة مثله .. أندھشت عندما رأيته بلا أنف و تحسست أنفى بلا وعى .. أقتربنا من الهرم الأكبر .. أستقبلنا مرشد ليقودنا فى رحلة صعودنا للهرم لزيارته من الداخل

لم أكن أعلم أنى سأزور هذا المكان المرعب من الداخل .. لو كنت أعلم لما ألححت فى الذهاب .. مؤكد أن الهرم مظلم لا مصدر للضوء بداخله .. يقولون عنى جريئة .. لا أخاف من الكلاب أو القطط .. لا أخشى التعامل مع الغرباء ، و لا أرتبك عند الغناء فى أذاعة المدرسة أمام التلاميذ .. حتى عندما رأيته فأراً فى منزلى لم أخاف منه أو أقفز رعباً فوق الأريكة مثل أمى .. ولكن الظلام شئ آخر .. أرتعب بشدة إذا أقتربت من مكان مظلم .. لا أنام ليلاً إلا فى حضن أبى أو أمى .. عندما تنقطع الكهرباء فى المنزل أظل أصرخ حتى تأتى .. أنزل أحياناً للعب مع صديقاتى أمام البناية و لكن عندما أرى مدخل البناية مظلماً أظل جالسة على الدرج بخوف حتى أسمع صوت شخص يهبط الدرج فأسير خلفه حتى أتجاوز المدخل .. ربما أنتظر ساعات حتى تمل البنات و تعود كل واحدة إلى بيتها .. لا أعلم لماذا أخاف من الظلام .. ربما بسبب كل تلك الحكايات الغريبة التى سمعتها .. و كل تلك الكائنات المشوهة التى كانوا يهددونها بها عندما كنا صغاراً

لا أتصور وجود هذه الكائنات سوى فى الظلام .. أراها بكل وضوح .. أرى

أشكالها المربعة و هي تقترب منى .. بعضهم بلا سيقان و بأذرع مخيفة ..
أحدهم بخاصة مخيف و يمتلك عيناً واحدة فقط تحديق فى و هي تضحك
بجنون فتصيب جسدى بالشلل .. أسمعها تتحرك بوضوح فى الظلام و هي
تتهامس و تشير نحوى .. ضحيتها التالية .. أكاد أجن و أنا أتصور ما الذى
يمكنها فعله عند الأمساك بى .. حتى عندما أغمض عيني فى الظلام أحس
بها تلتف حولى .. أشعر بأصابعها النحيلة تلامس شعرى فأنكمش أكثر ..
لها أظافر طويلة متسخة و أيدى نحيفة مخيفة .. يقشعر جسدى كله و
يرتجف عندما أحس بها بجوارى .. لا يحمينى منها أحد ، حتى عندما
أكون مع أبى أو أمى .. تتسلل بينهم بسهولة تامة .. الغريب أنهم لا
يستطيعون رؤيتها و لكنى أراها جيداً .. لا أعلم لماذا أراها أنا فقط .. لا
يصدقوننى عندما أصف لهم هذه الكائنات .. على الرغم من أنى أصفها كما
تترأى لى تماماً .. الغريب أنها تختفى عندما يعود الضوء و لا تظهر .. و
لهذا أعتاد أبى أن يترك ضوء الصالة مناراً طوال الليل فيغمر جزء منه غرفة
النوم حتى أستطيع النوم بجوارهما بسهولة بالرغم من أن الضوء يضايقه

أفقت على صوت المعلمة و هي تسألنى عن سبب خوفى .. حكيت لها بكل
صراحة عن مخاوفى .. أستمعت إلى و هي تهز رأسها بهدوء و عندما أنتهيت
أبتسمت بتفهم .. كنت أعلم أنها ستفهمنى .. أجلستنى بجوارها .. تكلمت

بثقة .. لم تنفى وجود هذه الكائنات .. لو فعلت لما صدقتها .. و لم تؤكد وجودها ، و لكنها أخبرتنى أننى أقوى منها .. أستطيع أن أهرمها بسهولة .. سألتنى إن كانوا أقوياء بالفعل كما أتصور فلما لم يخطفوننى من قبل عندما كانت تتاح لهم الفرص .. لم أجد أجابة .. قالت أنهم لا يستطيعون أذى أى شخص .. مثلهم بالضبط مثل الشخصيات الشريرة التى تعرض فى التلفاز .. لا يستطيعون الخروج من شاشة التلفاز لأذيتنى .. أثق بمعلمتى كثيراً و لكنى ما زلت خائفة .. فكرت هى لدقيقة ثم طلبت منى أن أغمس عينى .. أطعتها على الفور .. طلبت منى أن أحلم بشئ تمنيت كثيراً الحصول عليه .. أو أتخيل مكان جميل أرغب بشدة بالتواجد فيه .. للحظات لم أفلح ثم بدأت أتخيل حديقة كبيرة مليئة بالأزهار و الألعاب و الحلوى .. من حولى بعض صديقاتى المقربات و نحن نمرح بجوار نافورة مياة كبيرة ينتشر الرذاذ منها علينا .. وصفت لها ما أحلم به و بدون أن أدري وجدت نفسى أبتسم .. حلمت بوجود أمى و أبى بجانبى ثم محيتهما من الحلم بسرعة .. أشعر بالراحة و أنا أقفز من مكان لمكان و أفعل كل شئ دون رقابة .. أستطيع أن ألتهم كل هذه الحلوى و ألعب دون أن تذكرنى أمى بحل واجباتى .. أحببت الأمر .. عندما فتحت عينى كنت سعيدة لهذا الحلم الرائع و حكيت لها عنه بحماس .. ربتت على كتفى بحنان .. أسعدها

كلامى .. قالت أن هذا دليل على أن الظلام ليس بالسئ دائماً .. عندما أغمضت
عيني لم أكن أرى الضوء و لكنى كنت فى عالم أجمل .. و لم أصادف أى
كائنات مخيفة .. أفهمتني أنى أستطيع ان أعيش فى عالم جميل من الخيال
أبنيه و لا يتحكم به شخص سوى .. طلبت منى عند شعورى بالخوف أن
أغمض عيني فقط و أعود لأحلم بأى عالم جميل أتمناه .. زال شعور القلق
بداخلي و أحسست بالذنب لأنى كنت أجبن من اللازم من قبل .. أمسكت
يدى مرة أخرى و سألتنى إذا كنت مستعدة لدخول الهرم .. ترددت للحظة
ثم وافقت بجرأة و أخبرتها أننى لم أعد أخاف من الظلام .. لم أعد أراه سيئاً
مثلما أعتدت .. مشيت معها بأستسلام بعد أن تجرأت قليلاً

كان الطلاب فى أنتظارنا و معهم الدليل عندما دخلنا .. المكان ضيق و
لكنه مضاء بالعديد من مصابيح الأضاءة و لم يكن مظلماً مثلما تخيلت ..
تعمقنا فى الداخل .. أستاذن الدليل منا للحظات و تركنا نتجول .. مشيت أنا
و المعلمة فى مؤخرة الصف و معنا الأستاذ بدوى .. كان الأولاد يدونون كل
شئ يرونه .. فالزيارة فى الأصل لم تكن سوى رحلة تعليمية حيث يدرسون
كل شئ عن الهرم فى أحد وحدات المنهج .. مر الوقت بسرعة و نحن نستمتع
رغم ضيق المكان و نقص الهواء .. أبتعدنا عن المدخل و صرنا فى عمق المكان ..
رأيت سائح أو أثنان .. أول مرة أرى سائحين .. كان منظرهم طريفاً .. مرت

نصف ساعة و بدأنا نستعد للمغادرة .. عندما حدث أمر ما فجأة .. رأينا مصاييح الأضواء تومض مرتان أو ثلاث .. تسمرنا فى أماكننا .. ثم غرق المكان فجأة فى الظلام .. سمعنا صوت الأستاذ بدوى يطلب من التلاميذ بصوت عالى البقاء كما هم فى أماكنهم بينما أرتفع صراخ بعضهم .. ساد الهرج للحظات قبل أن يختفى تدريجياً .. يبدو أن الجميع ألتزم بتعليمات المعلم نتيجة للخوف .. سمعنا بكاء البعض .. و بعضهم كان يتنفس بصعوبة .. أدرك هذا من صوت أنفاسهم السريعة المتلاحقة .. تحسست بيدي فلامست شخصاً بجوارى قفز صارخاً من الرعب عندما لمستته .. كان تلميذ آخر .. صوت الأستاذ يعلو فى المكان و هو يطمئن الطلاب بنبرات قوية .. سمعنا صوت الدليل يأتى من مكان بعيد يخبرنا بوجود مشكلة فى الكهرباء سيتم حلها سريعاً .. طلب منا البقاء فى أماكننا .. لماذا يكررون هذا الطلب الغبى .. من يجرؤ على التحرك فى هذا الظلام التام .. كان الظلام حالكاً حقاً .. أعمق من أى ظلام مررت به من قبل .. لم أستطع حتى رؤية أصابع يدي .. بحثت بيدي عن المعلمة و لكنى لم أجدها بجوارى .. يدي أفلتتها بدون قصد لحظة أنقطاع الكهرباء .. يبدو أنها ذهبت لتساعد الأستاذ بدوى .. شعرت بالضعف بدونها .. أحسست بالخوف يتسرب إلى سريعاً .. بدأت أرى هذه العين التى أعرفها .. و تلك الكائنات .. هذه المرة الدماء تسيل من على جانبي فمها و قد

اكتسبت أنياباً جديدة .. دنت منى و هى ترفع أصابعها الرفيعة المخيفة فى الهواء .. تراجع للـخلف حتى أصطدمت بجدار .. أنكمشت فى رعب و غطيت وجهى .. أقتربت منى أكثر .. جلست أرتعش بأستسلام .. لم يخرج صوتى .. أنتظرت للحظات بلا مقاومة أن تلتهمنى .. و لكنها لم تفعل .. رفعت رأسى بتردد و نظرت إليها .. كانت مخيفة كما هى و لكنى أدركت أنها عاجزة عن أيدائى .. لا تفعل أكثر من إثارة خوفى .. هل هى ضعيفة حقاً كما قالت معلمتى .. بدأت أشك بقدرتها على ترهيبى .. أغمضت عينى و سرحت أحاول بصعوبة تخيل مكانى المفضل .. فشلت لدقائق قبل أن أهدأ تماماً .. أرتسمت أمامى الأشجار أولاً ثم طريق صغير .. بدأت الأزهار تنبت فى كل مكان و سمعت ضحكات صديقاتى و هن يلعبن بمرح فى الحديقة .. رفعت رأسى فرأيت الشمس و السحب الجميلة .. بدأت أودن بأغنية أحبها حفظتها مؤخراً بعد أن رأيتها فى التلفاز أكثر من عشرين مرة .. مع الغناء أحسست بالمرح .. أنطلقت فى الحديقة ألعب و أمرح .. هذه المرة قفزت فى النافورة و بللت ملابسى .. مرت دقائق و أنا فى عالم آخر يتسلل إليه أحياناً بكاء طفل أو صراخ طفل آخر .. و لكنى لم أهتم و واصلت اللعب بحماس .. لم أعد أشعر بما حولى .. بل بدأت أنساءل لماذا لا يستمتع هؤلاء الحمقى معى بهذا المكان الجميل و يكفوا عن أزعاجى بالبكاء .. وجدتنى أبتسم بلا وعى ..

سرحت فى عالم أمتلكته لدقائق .. قبل أن أشعر بحركة قوية أضطرتنى لمغادرته مؤقتاً .. هل جاءت وحوش جديدة لمهاجمتى .. لا .. رأيت الضوء يعود للمكان .. تنبهت و تطلعت حولى .. معظم الأطفال كانوا يفترشون الأرض و بعضهم ملتصق بالجدار و الفزع واضح على وجوههم .. قاموا فوراً عند عودة سريان الطاقة .. صاح بعضهم فى مرح .. و مسح بعضهم دموعه .. بدأ الأستاذ بدوى ينظم الطلاب فى صفين لسرعة مغادرة المكان .. تلفت أبحث عن أخى .. وجدته ينظر إلى بتعجب .. لم ألاحظ أنى وسط هذه الظروف كنت ما زلت مبتسمة و أنددن ببساطة أغنيتى المفضلة بصوت مسموع .. بدأوا يتحركون سريعاً فى طريقهم للخارج بعدما عاد المرشد سريعاً ليدلهم على المخرج .. و لكن أين مس أحلام .. نساها الجميع للحظات .. كانت بجوارى عند أنقطاع الكهرباء .. تلفت أبحث عنها .. فى ركن مظلم لمحت خيال يجلس على بعد أمتار قليلة .. و لكن الخيال لم يكن يتحرك .. ناديت المرشد .. أقتربنا منه .. سلط عليه المرشد ضوء كشاف فى يده .. رأينا الجالس بوضوح .. امرأة ما .. واضح من ملابسها ولكنها تخفى معظم وجهها .. ربما سائحة مذعورة .. تجلس على الأرض و قد ضمت ركبتيها على صدرها .. تلف يدها حول ساقيهها بقوة و تنظر إلينا برعب و نحن نواصل تسليط الضوء عليها .. سمعت صوت أسنانها تصطك بينما جسمها يرتجف بقوة .. تنتظر

حولها بهلع و تخفى وجهها و كأنها تحمى نفسها من كائنات وهمية
تراها .. وقفنا على بعد خطوات منها .. رفعت عيناها بعدها للحظة تحقق
لشئ ما فى الظلام بذعر حقيقى و كأنه سيهاجمها .. تعرفت عليها وقتها
تأكدت أنها هى .. لم تكن سائحة بل كانت معلمتى .. فى حالة رعب
تامة .. كانت مس أحلام أخرى

الدور

سألت صديقي الممثل : ما أغرب حكاية مرت بك فى حياتك ؟
قفز السؤال إلى ذهنى فجأة فخرج بلا حساب .. سكت قليلاً سارحاً مع
تيار أفكاره .. نظر لنا نظرة طويلة .. نفس شلة الأنس القديمة التى تتكون
منى و ثلاثة من أصدقائنا .. نجتمع كل فترة فى منزله .. سحب نفساً عميقاً
من الشيشة المستقرة أمامه قبل أن يقول بهدوء:
-تعلم من سنوات طويلة كنت ممثل مغمور .. لم يكن أحد يسمع عنه ..
وقتها كنت أسكن فى بيت قديم متهالك .. صاحبتة أرملة صغيرة فى السن ..
لا زلت أتذكرها جيداً حتى الآن

سكت للحظات أكتسى وجهه خلالها بأبتسامة صافية قبل أن يكمل:
أنا فنان سافرت حول العالم .. عرفت نساء بعدد شعر رأسى .. مغامراتى
أكثر من أن أتذكرها .. بحكم عملى تعاملت مع أجمل ممثلات .. فنانات ..
عارضات أزياء .. لكنى لم أقابل يوماً من يضاهى جمالها .. جمال غريب من

النوع الذى تقابله مرة واحدة فى حياتك .. إلى اليوم ما زلت أتذكرها و كأن صورتها نقشت بألوان لا تمحى على جدران ذاكرتى .. أحياناً عندما أودى مشهد رومانسى أتخيلها فقط أمامى فتنساب مشاعرى و أودى الدور بسلسلة لا أعهدا

سألته مندهشاً : لهذه الدرجة ؟

رد قائلاً و قد أعتدل فى جلسته : طبعاً .. كيف أستطيع أن أصف جمالها .. جمال ريانى نادر أن تراه فى حياتك .. صورة مثالية لن ترسمها حتى فى خيالك .. لو رأيته لعرفت .. صغيرة هى .. لم تتجاوز الثالثة و العشرين .. تزوجت من رجل كبير فى السن فى مثل عمر أبيها .. تاجر كبير من الأرياف رآها فى زيارة لقريته فأعجبته .. والدها فلاح بسيط و أختها بعدد أصابع اليدين .. تقدم لخطبتها مباشرة فلم تسع الفرحة والدها الفقير .. تزوجها رغم أنه متزوج وبعض أولاده يفوقونه طولاً و يتجاوزونها عمراً .. جاء بها لبيتها القديم بعيداً عن زوجته الأولى .. بعد سنتين مات .. ورثت هى منه البيت القديم و إن كان يوجد خلاف بينها و بين أولاد زوجها .. أستأجرت شقة منها .. لم أكن أراها كثيراً فى البداية حيث كنت أعود من عملى فى المسرح كل ليلة متأخراً .. و أيضاً لأننى كنت أتأخر دوماً فى دفع الأيجار .. لكن فى الفترة الأخيرة بدأت أترقبها و أحاول الأقتراب منها ..

كنت أنتهز أى فرصة لأكلمها .. أرسم وأخطط للأيقاع بها كما لو كانت حياتى تتوقف على هذا الأمر .. مرت أسابيع و بدأت الألفة تزيد بيننا بشكل كبير لكنى لم أستطع أيقاعها فى شباكى .. و إن كنت أنتظر هذه الفرصة بفارغ الصبر .. و لم أحكى لها طبعاً عن عملى كممثل فاشل

عدت يوماً من المسرح متأخراً .. أحد أصدقائى دعانى لسهرة خاصة .. وافقت رغم أنى توقفت عن السهرات الحمراء من فترة .. على مدخل البيت لمحت شبح عيد الشحات .. يجلس متدثراً ببطانية قديمة و هو يرتجف من البرد .. عادة كنت أصرخ فيه و أسبه عندما يظهر لى كعفاريت آخر الليل على مدخل البيت و أنا أترنح فى عودتى المتأخرة إلى منزلى .. أحياناً كنت أدفعه بقدمى بعيداً بقسوة .. لا أدرى لما يومها أحسست بالشفقة نحوه .. عبثت فى محفظتى و أخرجت نصف ما معى من نقود قليلة و مددت يدى لأعطيها له .. رفع عينيه يرى من يحسن إليه و هو يدعو له .. عندما رآنى تملكه الرعب فوراً و أسرع بالزحف بعيداً عنى .. رميت النقود بجانبه و أنا أطمئننه .. ارتقيت السلم و هو يتابعنى بنظراته دهشاً .. دخلت البيت بسرعة و رميت نفسى على أقرب كرسي .. رحت فى غيبوبة عميقة أستيقظت منها فجأة على صوت طرق على الباب .. ظننت أنه من أثر الدخان .. أغمضت عينى مرة ثانية لكن عاد الطرق بعدها بدقيقة .. طرق خفيف على الباب تظن من خلاله

أن الطارق طفل صغير .. نهضت بصعوبة .. تساءلت مستغرباً عن القادم فى مثل ذلك الوقت المتأخر .. فتحت الباب و أنا أتثأب .. و بمجرد أن رأيتهما أمامى .. طار النوم من عيني فى لحظة .. تبخرت سيجارة الحشيش و معها كل ما شربته فى ثوانى .. كانت هى من تقف على الباب .. لم أصدق عيني .. ترتدى فستان طويل منزلى من الصوف و فوقه شال أسود ثقيل يغطى كتفيتها .. تنفخ فى يدها من البرد و هى تتلفت حولها قليلاً .. رغم كل خبرتى فى عالم النساء أرتبكت .. للحظات لم أدرى كيف أتصرف .. و هى أيضاً لاحظت ذلك فتراجعت خطوة للخلف .. اعتذرت عن مجيئها فى وقت غير مناسب .. تكلمت بسرعة عن سبب زيارتها المفاجئة .. مشكلة ما فى الحمام عندى حيث يتسرب الماء منه إلى شقة جارى الذى يقطن أسفل منى كما زعمت .. قالت أنها أحضرت السباك عدة مرات لمعالجة المشكلة دون أن يجدننى .. طلبت منى بأرتباك أن أترك لديها نسخة من مفتاح الشقة حتى يستطيع السباك مواصلة عمله عندما يأتى فى المرة القادمة .. تراجعت بعدها خطوات للوراء بانتظار ردى

تخيلت أن كلامها مجرد حجة لتقابلنى .. كان يمكن أن تنتظر للصباح .. أسترددت بعض وعيى و صممت على أنتهاز الفرصة .. فتحت الباب أكثر طالباً منها أن تدخل إلى أن أبحث عن المفتاح الذى أنسى دوماً مكانه .. وقفت

لثوان مترددة .. كان الجو بارداً خارج الشقة و هى تضم الشال حول كتفيها بقوة لتقاوم برودة الجو .. تقدمت نحو الشقة و لكنها توقفت خلف الباب من الداخل بخطوة .. أشارت إلى كرسى فى الصالة كى أقطع عليها الطريق .. عندما رأت أصرارى دخلت مضطرة .. و بمجرد أن جلست حتى أغلقت الباب جلست على طرف الكرسى .. تتلفت حولها .. تظاهرت بالبحث عن المفتاح الذى كنت أنسى مكانه فعلاً .. أطحت بزجاجة بيرة كانت تستقر بأهمال وسط الصالة إلى وراء الكرسى .. ذهبت للمطبخ بعد أن عرضت عليها أعداد كوب من الشاى .. رفضت فى البداية و لكنى ألححت عليها .. بصراحة أنا الذى كنت بحاجة للشاى لأفيق .. عندما رجعت أمسكت بكوب الشاى فى يدها دون أن تشربه .. تستمد من حرارته بعض الدفء .. بدأت بالكلام معها .. كلام عام فى البداية عن البيت و الجيران .. كانت ترد بتحفظ .. بعد قليل تفاجئت بها تسألنى : أنت ممثل ؟

ضحكت ضحكة قصيرة .. قلت لها بخجل : يعنى .. أديوار ثانية رأيت عيناها تلمعان .. أبتسمت بتلقائية جميلة .. أخبرتنى أنها تحب التمثيل جداً .. أردفت بحماس : تمنيت كثيراً أن أكون ممثلة .. لم أشاهد أى أفلام فى حياتى فى القرية لأننا لم نمتلك تلفاز فى البيت .. لكنى شاهدت الكثير عندما جئت إلى هنا .. المرحوم أصطحبنى مرة واحدة

للسينما .. لكنى لم أشاهد لك أى فيلم

قالت الجملة الأخيرة بخجل .. سككت لدقيقة .. أخبرتها أنى ممثل مسرحى و ليس لى أدوار تذكر فى السينما .. هزت رأسها متفهمة .. تبادلنا الحديث بعدها .. أو بمعنى أصح هى تتكلم و أنا أستمع .. تركت لها الفرصة لتعبر عما بداخلها .. كان رأيى دائماً أن أكبر عيب فى المرأة لسانها .. و أنها عندما تفتح فمها تفقد نصف جمالها .. لكن هى كانت مختلفة .. أجمل مائة مرة و هى تتكلم .. تحكى ببراءة طفلة صغيرة .. تضحك بدون قصد عندما تتكلم عن موقف طريف .. و عندما يأتى ذكر مشكلة تنظر للأرض بخوف غريزى .. تحرك يدها كثيراً فى تناغم عندما تتحدث فتكمل حركة يدها كلامها .. لو رأيته لشعرت أنك تقف أمام لوحة جميلة .. كل شئ فيها جذاب .. نبرة صوتها .. تعبيرات وجهها .. عفويتها .. أسندت رأسى على يدى أستمع بجمال تلك السيمفونية المتكاملة دون أن أقاطعها برغم أن معظم كلامها كان عن مشاكلها .. تكلمت عن زوجها الذى رحل بعد أن أوصى لها بالبيت القديم فى وصيته .. لكن أولاده من زوجته الأولى ما زالوا يهددونها .. قاموا برفع قضية ضدها بزعم أن والدهم لم يكن فى كامل وعيه عندما كتب وصيته .. لو كسبوا القضية ستجد نفسها فى الشارع خاصة بعد وفاة والدها .. ظهر الحزن واضحاً فى صوتها .. رأيت بعض الدموع تترقرق

فى عينيها .. أبعد هى ما تكون عن المشاكل .. لا تدرى لماذا يكرهها أولاد زوجها .. تتمنى أحياناً لو تترك لهم البيت و تهرب بعيداً .. زوجها ترك لها أيضاً بعض الذهب و النقود تستطيع أن تبدأ بهم حياة جديدة فى أى مكان آخر .. لكنها تخاف كثيراً من الأقدام على خطوة كذلك بسبب قلة خبرتها .. حياتها أنحصرت من بيت أبيها إلى بيت زوجها .. مر الوقت سريعاً دون أن أشعر .. بعدها بفترة أطرفت للأرض بخجل و اعتذرت لأنها تكلمت كثيراً .. سألتنى بعدها عن المسرح و التمثيل .. لاحظت أنها قد خلعت الشال الذى على كتفها بعد أن شعرت ببعض الألفة .. ناولتها جريدة قديمة تظهر فيها صورة لى مع ممثل معروف للمسرحية التى أمثلها حالياً .. لم تعرف على طبعاً .. كنت أردى زي أحد الشيوخ .. سألتنى بحماس عندما رأت الصورة عن الدور الذى أقوم به

فى هذه الفترة كنت فى بداية طريقى الحقيقى نحو النجاح .. لأول مرة أحصل على دور كبير .. دور ثان فى مسرحية جديدة لكنه دور محورى دفعنى نجاحى فيه إلى بداية طريق الشهرة وقتها .. كنت أقمص شخصية شيخ مناضل تحدى سلطان ظالم بشجاعة و مات شهيداً يدافع عن رأيه .. شخصية تاريخية مشهورة .. لا تضحك .. أعلم ما يدور فى ذهنك .. ذنب فى ملابس شيخ .. تناقض ساخر .. و لكنه كان أكبر دور أمثلته وقتها منذ بدأت

مشوار التمثيل من سنين طويلة .. قرأت كثيراً عن ذلك الشيخ .. أحضرت كل الكتب و المراجع التى تتناول سيرته .. أكتشفت أنه عالم كبير لم أكن أسمع عنه من قبل .. بهرنى بأرائه و علمه .. أحترمته جداً عندما قرأت عن مواقفه الجريئة و شجاعته .. بدأت أتدرب على الدور .. كنت أقف أمام المرأة يومياً محاولاً أتقان الدور .. أعيد المشاهد أكثر من مرة على المسرح و قمت بالكثير من البروفات لدرجة أنى حفظت معظم دورى غيباً و لم أعد بحاجة إلى ملقن

ضحك فجأة و هو يقول : آه لو رأيتنى بالجلباب الأبيض و العباءة .. و عمة الرأس و اللحية السوداء التى يغزوها الشعر الأبيض .. لم يكن أحد ليعرفنى .. حتى المخرج عندما رآنى أول مرة بالزى لم يتمالك نفسه من الضحك صائحاً : من يراك الآن يظن أنك شيخ .. و لا يدري أنك سكير و ذئب نساء . لكنه كان مقتنع جداً بى .. كنت أنام أحلم بالدور و أستيقظ لأتدرب على كلمة .. كل تعبير .. كل أيامة .. و كل حركة .. يقولون أحياناً أن الممثل يندمج فى الدور الذى يمثله فينسى ذاته .. يعيش الدور و يتنفسه .. يتقمصه بكل حواسه .. لدرجة أنه يؤثر عليه فى عالم الواقع .. أتذكر ممثل معنا ظل يقوم بدور الملك فى مسرحية لفترة طويلة .. حتى أنه عندما يسكر و يضايقه أحد كان يتوهم أننا حراسه فيشير لنا قائلاً : أقتلوا هذا الوغد .. و ممثلة أخرى كانت تذرف بالفعل دموعاً حقيقية عندما يقتل أبنها فى أحد المشاهد

على المسرح .. لم أشعر من قبل بأحاساس التقمص هذا .. أخرج من المسرح عادة فأنسى كل شئ و لا أفكر سوى فى النساء و الدخان .. و لكننى عرفت معنى التقمص لأول مرة مع هذا الدور .. لدرجة أنه بدأ يؤثر على حياتى بشكل ما .. بعد شهرين من بداية المسرحية أكتشفت أننى أبتعدت كثيراً عن السهرات غير البريئة .. لم أعد أدخن مثل السابق .. بدأت أنجذب لقراءة الكتب الدينية و أنا لم أقرأ فى حياتى أى كتاب من أى نوع منذ تخرجى سوى الأدوار التى تعرض على .. لم أقص عليها طبعاً كل هذا الكلام .. كانت تبتم و هى تسمعنى و لم تحاول مقاطعتى .. تكلمنا بعدها عن طموحاتنا و أحلامنا .. ضحكنا كثيراً .. مر الوقت سريعاً دون أن نشعر به .. سادت بعدها فترة صمت قصيرة .. لمحتها تعيد أحكام الشال مرة أخرى فوق كتفها .. برودة الجو بدأت تشتد .. أدركت أنها تستعد للمغادرة .. لن أضيع الفرصة .. سأصاب بالجنون بالتأكيد إذا أفلتت منى .. دار عقلى بسرعة .. استأذنت منها لدقيقة .. عدت و معى اليوم صور أعتز به كثيراً .. يحتوى كل صورى على المسرح .. كان واضحاً أنها تحب التمثيل بالفعل .. عندما بدأت أقلب فى الصور تطلعت إليها بحماس طفولى شديد .. بدأت تضحك و تعلق على كل صورة .. تشير على كل ممثل مشهور تميزه .. بسرعة جلست بجوارها .. وضعت يدى حول كتفها بحركة بدت عفوية و أنا أشير بها على

كل صورة و أسرد قصتها .. قصصت عليها كثير من الحوادث و النوادر التى تحدث على المسرح .. سألتنى إن كانت تصلح كممثلة .. أخبرتها بثقة أنها ستكون ممثلة عظيمة .. أنتهزت فرصة زيادة الألفة بيننا فقمتم أحضر بعض علب البيرة من المطبخ .. ناولتها واحدة .. نظرت لها بدهشة و شك .. ضحكت وقلت مازحاً أن كل ممثلة عظيمة تشرب مثلها .. كما أنها لم تتناول الشاى الذى أعددتته و لست أحب بالتأكيد أن يرى ضيوفى أنى بخيل .. قطعت عليها فرصة التراجع و فتحت لها أحد العبوات .. أنسكب جزء منها على ملابسها .. تطلعت إلى العلبة بفضول حذر ثم شربت منها بتردد و أنا أواصل تشجيعها بهدوء .. و بسرعة صعد الدم إلى وجنتيها .. غاصت فى الكرسى أكثر و هى تتطلع للصور و تطلب منى أن أحكى قصة كل صورة .. لففت ذراعى كله حولها .. بدأ لسانها يثقل قليلاً بعد تناولها للبيرة التى لم أخبرها طبعاً أنها مركزة .. تأملت شعرها الناعم .. رفعت الشال من على كتفها دون أن تعترض .. بدأت أتمرر يدى على شعرها .. أقتربت منها حتى ألصقت بها بينما أغمضت هى عينيها فى أستسلام .. أحسست بانتفاضة خفيفة تسرى فى جسدها و أنا أحتضنها .. طبعتم أول قبلة على خدها بينما تتسارع أنفاسها .. ثم قبلات حارة على رقبتها و يدها .. لم تقاوم لذة الشهوة التى أدرك بخبرتى أنها حرمت منها طويلاً .. تهاوت بين يدى بلا

مقاومة .. غرقنا فى النشوة و أنا أقبلها بعنف .. أمسكت بيدها و قدتها نحو
غرفة النوم و هى تمضى معى بلا مقاومة

و هنا توقف صاحبى .. أشعل سيجارة و أخذ ينفثها بتوتر .. تركته
حتى أنهاها دون أن أقاطعه .. رمى السيجارة و أطفأها بقوة بقدمه .. سألته
بلهفة : ماذا حدث بعدها ؟

قال بضيق : لم يحدث شئ .. هذا هو الغريب .. ما حدث بعدها أمر
غريب حقاً لم أكن أتصوره .. أخيراً المرأة التى سعت لأسابع وراءها بين
نراعى .. تتهاوى فى حضنى .. مستسلمة تماماً .. وسط كل هذا داهمنى
شعور غريب لم أعرف مصدره .. شعور بعدم أرتياح .. قلق .. أحساس يتسلل
إلى نفسى ببطء شديد و لكن بثبات .. شعرت بأحتقار لما أقوم به .. لن
تصدقنى و لكن هذا بالضبط ما حدث .. كنت فى بداية أحساسى بالنشوة
عندما وقعت عينى على كتاب من تلك الكتب التى أشتريتها عن الشيخ الذى
أنقضى دوره .. أنتابنى أحساس مزعج بالخجل .. دفعت بالكتاب بعيداً
أسفل السرير .. لكن تفكيرى ظل معه .. يتمرد على .. حاولت أنساه ..
أناساه .. أتجاهله .. حاولت أن أعود للحظة المتعة و لكن أفكارى عادت
إليه .. ثلاث أشهر كنت أمثل شخصيته .. أمتص أفكاره .. أقدمها ..
أعيشها .. أعبر عنها .. إلى أن أصبح جزء منى لا يتخلى عنى حتى فى أوقات

راحتى .. كنت من ساعات قليلة فقط أقف على خشية المسرح أتكلم عن الحق والفضيلة والشجاعة .. وها أنا ذا الآن فى أحضان امرأة ! .. شتان الفارق والمعنى .. وأشتعل صراع داخل نفسى .. صراع خاص بين شخصية ضعيفة مستسلمة تجرى وراء شهوتها .. وأخرى قوية صلبة على استعداد لتقف وحيدة أمام العالم فى مقابل كلمة حق .. وبدأ صراع آخر بين الحرام والحلال يشب بداخلى .. حاولت أخمد هذا الصراع وعندما نجحت أكتشفت أنى أخمدت شهوتى أيضاً .. أفقت .. أنتبهت .. وعندما فعلت لم أكن وقتها الممثل المغمور الذى يجرى خلف متعته .. كنت أتمنى حقاً أن أعود لنفسى .. أعود لأكون هذا الأحمق العاثر مرة أخرى ولكنى فشلت .. بداخلى ظهرت شخصية شيخ قوى حازم مستعد لمحاربة العالم كله بثبات من أجل مبادئه .. شيخ لا يضعف أو ينهزم أمام شهواته .. نظرت للمرأة بجانبى ولم أعد ألاحظ أنها جميلة .. بعدت عنها .. لاحظت هى أنى تغيرت .. توقفت عن ملامستها .. غابت حرارة جسمى .. سألتنى عن سبب تغيرى .. ما لا أنساه أبداً هو أنى سحبتها بقسوة من يدها لكى تنهض .. خرجنا من غرفة النوم .. أشرت إلى الباب وأنا أطردها .. وقفت لثوانى مصدومة .. ألتقطت ملابسها بسرعة عندما رأت أنى فى منتهى الجد .. بان عليها الغضب .. أتجهت نحو الباب بسرعة بعدما طلبت منها أن لا تأتى هنا مرة أخرى .. فتحت الباب

على مصراعيه و قبل أن تخرج ألقى نظرة على علب البيرة الملقية بأهمال فى كل مكان .. نظرت لى قائلة بأحتقار : تمثل على دور المحترم .. و أنت مجرد وغد سكير .. لأول مرة أدع رجل غريب يلمسنى .. ولكنه خطئى بالتأكيد و لن يتكرر .. خرجت و أغلقت الباب وراءها بعنف .. لم أنم تلك الليلة و ظللت ساهراً طوال الليل أفكر .. غمرنى شعور بالراحة لم أعهده من قبل .. كنت متأكد أنى قمت بالصواب لأول مرة فى حياتى

توقف قليلاً ليشعل سيجارة أخرى قبل أن يكمل:

تعمدت بعدها لاحقاً أن أعود للبيت متأخراً .. بعد يومين سمعت أن أولاد زوجها الاول كسبوا قضيتهم ضدها .. أستعانوا ببطلجية لطردها ورمى أغراضها خارج البيت .. عرفت أنها لم تجد أحداً يقف بجانبها أو حتى يساعدوا خوفاً من أولاد زوجها .. سألت عليها لكنها أختفت .. أختفت تماماً .. أنشغلت بعملى .. بعدها بفترة قصيرة كتب ناقد مهم عن دورى و أشاد به .. قال أننى من أفضل الممثلين الذين رآهم تقمصاً للشخصية التى أمثلها .. ربما أحساس التقمص ذلك هو سبب شهرتى و سر نجاحى بعد ذلك فى كل أعمالى .. حصلت بعدها على دور أكبر .. و نجحت فيه .. وبدأت أعرف طريق الشهرة .. غادرت البيت و انتقلت لمكان آخر .. أنشغلت بالعمل و عالم الشهرة الذى بدأت أطرق أبوابه .. سنوات إلى أن أصبحت نجماً يشار

إليه بالبنان .. لكننى لم أنساها يوماً أو تمحى ذكرى تلك الليلة من ذاكرتى الهشة .. لسنوات طويلة ظللت أفتش عنها بلا فائدة .. بحثت عنها كثيراً .. أكثر مما تتخيل .. مستعد الآن لأن أدفع نصف عمري و كل نقودى كي آراها مرة أخرى .. أشعر بها أمامى .. أرى أبتسامتها و ألمس يدها البضة مجدداً .. عندما تعاودنى ذكرى تلك الليلة .. أحياناً ينتابنى أحساس شديد بالندم .. أضعت فرصة صعب أن تتكرر مع امرأة لا تقابل مثلها فى حياتك إلا مرة واحدة .. لكن صدقنى وقتها كنت فى حالة غريبة .. حالة سلام مع نفسى و مع كل شئ .. و شعرت أن ما قمت به الصواب

سكت قليلاً فأنتهزت الفرصة لسؤاله:

هل لو عاد بك الزمن لتلك الليلة مرة أخرى .. هل كنت ستنتهز الفرصة

؟

-لا أعتقد أن ذلك كان سيغير من الأمر شيئاً .. فى تلك الفترة كنت فى حالة غريبة كما قلت لك .. حالة صفاء تام .. تصالح غريب مع ذاتى .. تغيرت فى تلك الفترة كثيراً للافضل .. و كنت أنساناً جديداً لفترة من الزمن ..

ثم سكت قليلاً قبل أن يردف : و لكن للأسف تلك الفترة لم تستمر لمدة طويلة ..

سألته بتعجب : لماذا ؟

ضحك بتلقائية وهو يجيبني : لأن المسرحية أنتهت و الدور الذى
حصلت عليه بعدها مباشرة كان دور مجرم كبير .. بلطجى و قواد !..

السيارة

كان أول من يشتري سيارة فى قريتنا

قبلها أعندنا أن نسير على الأقدام أو نستخدم الدواب فى التنقل .. عربية واحدة فقط كانت تمر على القرية بانتظام كل صباح .. سيارة نقل متهالكة كانت فى الأصل سيارة عسكرية لنقل الجنود أشتراها صاحبها الأسطى عبود من مخلفات الجيش .. غطى الكابينة الخارجية لتتحول إلى صندوق كبير يتسع لستة أشخاص و لكنه يحشر بها عادة عشرة ركاب .. تمر السيارة على القرية عدة مرات طوال النهار لنقل الركاب من قريتنا إلى مركز المدينة حيث الخدمات التى لم تتوفر لدينا ، و خلت قريتنا منها .. يستغرق الطريق نصف ساعة تجلس فيها محنى الظهر تسمع صوت تكسر عظامك عند أى مطب .. تتشبث بمقعده جيداً حتى لا يطير جسدك فى فراغ العربة عند أى منعطف حاد .. معظم الركاب عادة يستهدفون الذهاب إلى المستشفى الكبير فى المدينة حيث لا يتوافر مستشفى قريب فى قريتنا النائية .. أو للتوجه إلى أسواق الملابس و الخردوات المنتشرة بكثرة هناك

أمى تقول أنى شخص حقوق .. تعرفنى جيداً .. أعترف بهذا .. ولكنى
عالجت نفسى بنفسى من فترة .. وظننت أنى تخلصت من تلك الصفة حتى
جاء محمود بسيارته

محمود أبن عمى .. كلانا ورث بيته عن أبيه .. بيت كل منا ملاصق
للآخر .. تربينا معاً منذ الصغر .. ذهبنا لنفس المدرسة .. ولكنه أكمل
تعليمه و تفرغت أنا لرعاية الأرض .. أرضه التى ورثها من أبيه لم تكن
كبيرة و لهذا فضل الوظيفة بعد أن ترك زراعة الأرض لأخيه الأصغر .. بينما
ورثت عن أبى أرضاً ضخمة أظل طوال النهار أشرف عليها و أعمل فيها ..
نستيقظ كلانا فى الوقت نفسه فى الصباح .. أذهب إلى الحقل بينما ينتظر هو
سيارة الأسطى عبود للذهاب إلى عمله فى المدينة حيث يعمل كمحاسب فى
شركة كبرى هناك .. هكذا ربط القدر بين حياة كل منا .. حتى عندما
تزوجنا .. اخترنا أختين من نفس العائلة .. و تزوجنا فى سنة واحدة ..

ربما لم أكن لأشعر بالغيرة لو لم يسكن بجوارى .. أتذكر جيداً يوم جاء
بسيارته .. حدث نادر فى قريتنا المتواضعة .. أخترت السيارة أزقة قريتنا
الضيقة المتعرجة بينما دفع الفضول البعض للوقوف فى النوافذ و على أسطح
البيوت للفرجة عليها .. حرص أطفال القرية على الركض ورائها و تسلق
هيكلها المعدنى اللامع بينما يواصل محمود دفعهم عنها برفق .. عمدة القرية

نفسه جاء ليشهد السيارة التى أصبحت حديث الساعة .. أشتراها محمود من أحد عملائه فى الشركة الذى أضطرته الظروف للسفر فجاء .. أصبحت مشار أهتمام الناس و أحاديثهم .. عرفت لاحقاً أنه باع جزءاً من أرضه لأخيه حتى يوفر ثمنها .. أنقلبت حياته بعدها .. و معها حياتى

قبل مجئ محمود بسيارته أعتدت أن أكون محط أنظار أهل القرية .. المثل الذى يتطلع إليه الجميع بحسد .. رغم صغر سنى ، لكن أرضى هى الأكبر .. أكبر حتى من أرض العمدة .. محصولى هو الأفضل دائماً لأنى أزرع و أشرف على الأرض بنفسى .. و بيتى هو أوسع بيوت القرية .. كان هذا هو المجال الذى لم ينافسنى فيه أحد .. و لا حتى محمود المتعلم .. يحسدنى الجميع .. صحيح أنى لا أحب الحسد ، و لكنى أحب أن أكون موضع أهتمام الناس و أشعر بالسعادة لذلك .. حتى تغير كل شئ يوم جاء محمود بسيارته .. بفضلها أصبح سيد القرية غير المعلن .. بمجرد أن يخرج كل صباح للتوجه إلى عمله حتى ينتهز البعض الفرصة للذهاب معه إلى المدينة لقضاء مصالحهم .. محمود طيب يخجل من رفض طلب أحد .. عكسى تماماً فأنا لا أعرف الخجل .. يقوم بأصطحاب مرضاهم أحياناً إلى المستشفى فى المدينة .. يحمل أغراضهم الثقيلة لنقلها من مكان لآخر .. و عند إقامة أى عرس يتطوع بزفاف العروسين بسيارته بعد أن يقوم بتزيينها بشكل بارع .. بل و نقل

الأثاث أحياناً إلى بيت العروسة .. لا يوجد فى القرية بيت لم يحتاج لمحمود .. أفضله على الجميع .. أصبح لديه فى وقت قصير مكانة كبيرة عند الناس تضاءلت معها مكانتى .. ينهضون من مجالسهم عند اقترابه منها .. يحيونه بحرارة ولا يتكلمون إلا إذا بدأ الكلام .. حتى العمدة بدأ يصادقه فهو يستغله أحياناً للذهاب إلى المركز فى الحالات الطارئة

لا أخفى أنى شعرت ببعض الغيرة فى البداية .. ولكنى تجاهلت هذا الشعور ولم أهتم بالامر كثيراً .. ولكن بضعة حوادث لاحقة قضت على الهدوء النسبى بداخلى .. بدأت بزواجى ذات صباح وأنا أراها تتطلع من النافذة بأهتمام .. تشاهد أختها تخرج بصحبة محمود وأولادهم بعد أن حملوا الكثير من الأغراض وكدسوها فى السيارة .. علمنا أنهم فى طريقهم لأحد أقاربنا فى مدينة ساحلية قريبة للأستمتاع باليوم هناك هرباً من الحر الخانق الذى يجثم على القرية .. لمحت نظرات الحسد بشكل واضح على وجه زوجتى الجميلة .. تذكرت آخر مرة ذهبنا فيها إلى هناك .. أحتجنا للانتقال إلى مركز المدينة أولاً و الأنتظار هناك طويلاً لأستئجار سيارة أخرى للذهاب إلى المدينة الساحلية ثم أستئجار سيارة أخرى لقريبى ومنها للشاطئ .. ضاعت ساعات فى التنقل ووصلنا هناك مرهقين تماماً بعد أن تحطمت أضلاعنا من حمل الأغراض .. أعتدنا بعدها يوماً رؤية محمود

يصطحب أولاده لمدرسة القرية الوحيدة بينما تخوض أبنتنا الوحيدة الوحل مع خادمتها للوصول إلى الكتاب .. و فى الأعياد يصطحب محمود أسرته للتنزه فى المدينة بينما يصعب علينا الأمر بسبب صعوبة المواصلات فى مثل تلك الأوقات .. و لكن الحادثة التى قصمت ظهر البعير حقاً كانت عندما قررت الأختان زيارة خالهما المريض فى المدينة .. ركبنا مع الأسطى عبود بعد أن أتفقت معه على دفع أجرة السيارة كاملة حتى لا يزعجنا راكب .. حملنا بعض الهدايا و أصنافاً كثيرة من الطعام أختبرناها بعناية .. تأخر الحاج عبود علينا .. عندما أنطلقنا أخيراً كانت السيارة تتمايل بشدة على الطريق و كأنها فى حلقة ذكر .. مما زاد من الامر سوءاً تعطلها فى منتصف الطريق و لم تغلق محاولات الأسطى عبود لأصلاحها .. لساعتان وقفنا نتقرب أى سيارة مارة و الشمس تلهب أجسادنا .. عندما وجدنا أخيراً سيارة تتسع لأغراضنا كانت سيارة نصف نقل و اضطررنا للركوب فى الخلف و الهواء الساخن يلفح وجوهنا .. وصلنا إلى المدينة قرب أذان الظهر و نحن نلهث من التعب .. الطامة الكبرى عندما أكتشفنا أن محتويات الهدايا التى تعبنا فى حملها تبعثرت و أختلطت محتوياتها .. بينما كان محمود و زوجته هناك من الصباح ينعمون بالراحة .. عند المغادرة لم تستطع زوجتى الحركة بسبب حملها .. لم تجداً بداً من أن تستقل سيارة محمود مع أختها فى العودة ..

بينما تظاهرت أن لدى بعض الأشغال فى المدينة حتى لا أركب سيارته .. و
عدت للقرية متأخراً و منهك تماماً

ظلت زوجتى طوال تلك الليلة تحكى عن سيارة محمود الواسعة .. تصف
كيف كانت تجلس فى الخلف كملكة على المقعد المريح .. و شنطة السيارة
التي كانت تسع للكثير من الأغراض .. وصفت مدى سهولة الرحلة و
أستمتاعها بالنظر من نافذة العربة .. ليومين ظلت تلمح .. و عندما لم تجد
أذنأ صاغية .. بدأت تحتد و تشكو .. طلبت بشكل مباشر أن نشتري سيارة
أيضاً .. فنحن لسنا " أقل من أى أحد " كما قالت .. و لكنى لم أستطع
موافقتها .. لم يحن موعد حصاد المحصول بعد .. و نقودى التى كنت أجنبيها
أعتدت أن أشتري بها أرضاً جديدة .. لم يعد معى مال .. و حتى لو معى ..
كنت أجهل تماماً قيادة السيارات بل و أخاف من الأمر .. حاولت أن أوضح
لها كثيراً و لكنها لم تقتنع .. و حرصاً على صحتها تجنبت الخوض فى هذا
الموضوع حتى لا أدخل معها فى أى جدال يرهقنى و يؤلها

رفيقة هى .. و لكنها عنيدة .. و الغيرة عندما تتملك المرأة تتحول إلى
كائن آخر يصعب أيقافه .. تعلم ضعفى نحوها .. ليس فقط لأنى أحبها .. و
لكن بسبب حملها المقلق .. تذكرت يوم زواجنا .. لا أخجل أن أقول أن
محمود هو السبب .. عندما خطب بدأ الناس يتكلمون عن حسن أختياره و

جمال خطيبته .. علمت بعدها أن لخطيبة محمود أخت أصغر و أجمل .. لم
أتردد و تقدمت لخطبتها بعدها بيومين فقط .. نعم قمت بذلك .. لم أكن
رأيته من قبل .. و لكنى بمجرد أن رأيته حتى تحولت إلى أنسان آخر ..
حياتى كلها كانت بين الأرض و مخازن الحبوب التى أمتلكها .. قلبى لا
يتسع إلا للمال و النفوذ .. لم أتخيل يوماً أن هناك مكان فى قلبى يتسع للحب
و العشق .. و لكنى عشقتها .. و هى أيضاً بادلتنى نفس الشعور .. إلى الآن لا
أتصور كيف كنت أعيش قبلها .. و لا أتخيل حياتى يوماً بعيداً عنها ..
أخاف عليها كثيراً و أحاول أرضاها بشتى الطرق .. و هى أيضاً تسهر على
راحتى .. تقوم بأى شئ لأرضائى .. تسبقنى كل صباح لتودعنى بشوق عند
باب الدار فأكتسب قوة تكفينى لشاق اليوم .. تساعدنى فى تغيير ملابسى
عند العودة و تهتم بالدار جيداً ليبدو دائماً فى أحسن صورة و تعتنى بأمرى
المريضة دون طلب منى .. أنجبنا بنتاً بعد عام من زواجنا .. فرحت بها
كثيراً .. و لكن الحمل أثر على جسدها الضعيف .. حملت بعدها مرتين و
أجهضت .. و لأربع سنوات كاملة لم تحمل .. تحملت ضغط أمى و عائلتى
لأتزوج مرة أخرى لأنجاب ولداً يحمل أسمى .. فى ليلة جاءتنى باكية
تتوسل إلى أن أتزوج بعد أن تأخر حملها .. غضبت و ثرت عليها .. لا أريد
أن يأتى الولد على حسابها .. لن تستطيع امرأة أن تحل مكانها عندى حتى

لو كانت ستأتى لى بألف طفل .. زرنا العديد من الأطباء بلا فائدة .. حتى حملت أخيراً بعد سنوات المعاناة .. تعليمات الطبيب جاءت صارمة .. يجب توفير كل وسائل الراحة لها و للجنين غير المستقر .. أى مجهود عنيف سيؤثر على سلامتها قبل الطفل .. جلبت لها خادمة و كنت أعاتبها بشدة إذا قامت بأى مجهود فى البيت .. و لكنها ما زالت تصر أن تستيقظ كل صباح لتودعنى .. فى الفترة الأخيرة عندما ثقل حملها و وصلت إلى الشهر السابع كانت تستند على الحوائط حتى توصلنى إلى باب الدار .. لا أغادر حتى أملى عيني من وجهها ، و أيقظ الخادمة لرعايتها

لا أخفى أن كلام زوجتى حرك شيئاً بداخلى كنت أظنه أختفى من فترة .. شعور غامض يلازمنى منذ الصغر لا أدري كنهه .. ولكنه يتعلق برغبتى دائماً أن أظل الأفضل .. أمى تقول أن أسمه حقداً .. لم أكن أصدقها .. بدأ ينتابنى هذا الشعور للمرة الأولى فى إحدى سنوات دراستى المبكرة .. عندما أتى أحد زملائنا بقلم من الحبر السائل ذهبى اللون .. أبهرنا القلم و الأضواء تنعكس عليه .. تحرك الشعور بداخلى لأول مرة .. كنت ضعيفاً وقتها و لم أستطع مواجهته .. أنتظرت فرصة خروج الطلاب فى الفسحة و تسللت للفصل .. أخذت القلم من حقيبة زميلى بعد أن راقبته و هو يضعه بها .. لم أسرق القلم .. لم أكن أريده .. أكتفيت فقط بأن أكسره إلى نصفين ..

ثم رميته خارج سور المدرسة .. شعرت بالارتياح .. تعودت على تلك الأمور بعدها .. عندما يأتي أحدهم بملابس جديدة مثلاً .. أتعمد سكب الحبر عليه .. أو أطلب منه مشاركتنا لعب كرة القدم و أجذبه من ملابسه بشكل يبدو عفوياً أثناء اللعب فأمزقها بشدة .. تكررت حوادث كثيرة مشابهة .. و عندما كبرت توارى هذا الشعور اللعين قليلاً و ظننت أنى تخلصت منه قبل أن يعود ثانية

فى تلك الليلة تشاجرت مع زوجتى .. رجعت للحديث عن السيارة و لأول مرة تصفنى بالجبن .. ثرت عليها و عنقتها بحدة .. تركت البيت غاضباً رغم برودة الجو الشديدة فى الخارج .. كنت على أى حال فى طريقى للمخزن لحراسته .. أعتدت أن أقوم بهذا عدة ليال بعد جمع المحصول .. تناولت بندقية والدى القديم و خرجت من المنزل .. لأول مرة لا تودعنى عند الخروج .. لم تعتاد القيام بهذا مهما كانت غاضبة منى .. مشيت فى الشارع المظلم ساخطاً على كل شئ .. تفاجئت بسيارة محمود تسد مدخل الشارع أمامى .. عادة يصف سيارته أمام منزله .. و لكنى حرصت فى الفترة الأخيرة أن أرى كثيراً من الماء أمام المنزل حتى تحولت الأرض إلى بركة ماء صغيرة .. لم أكن أريد رؤيتها أمام بيتى .. تذكرت لرؤيتها ما حدث للتو بينى و بين زوجتى .. و كل خلافاتنا فى الآونة الأخيرة .. غلت الدماء فى عروقى ..

قطعة الحديد الملونة تلك هى السبب .. غمرنى ذلك الشعور الغامض بقوة ..
كبتة طويلاً حتى تفحل .. أقتربت منها و فى لحظة غضب ركلت هيكل
السيارة بقدمى بقوة .. أفزعنى الصوت العالى الصادر منها .. جفلت ..
تراجعت .. خشيت أن يسمع محمود أو أحد من الجيران الصوت .. تسمرت
فى مكانى للحظات و لكنى لم ألحظ أى حركة .. النوافذ مغلقة و السكون التام
يعم المكان .. الليلة شديدة البرودة و الكل يحتمى فى داره تحت دفء
الأغطية خاصة أن الوقت متأخر .. تجرأت أكثر .. تملكتنى فكرة مجنونة
شقت طريقها إلى رأسى بسهولة .. نظرت للسيارة بحقد .. للحظة تخيلت
هيكلمها المعدنى محطماً مساوياً للأرض .. أبتسمت .. خرجت من أحلامى ..
لن أستطيع تحقيق ذلك بطبيعة الحال .. و لكن لا بأس ببعض الضرر إن ..
تلفت حولى بحذر .. توجهت نحو الأطار الأيمن .. ألتقطت سلكاً صغيراً من
داخل جيبى كنت أسلك به البندقية القديمة .. دفعته بغیظ مكبوت نحو
الاطار .. وقفت أرقبه بنشوة و الهواء يفرغ منه .. توجهت بعدها لأطار
آخر .. أفرغته مثل سابقه فى وقت أقل .. تطلعت حولى .. السكون ما زال
يعم المكان .. وقفت أطلع إلى السيارة بعد أن شعرت ببعض الهدوء .. سيظن
أن مسماراً أو حجر مدبب هو السبب .. هذه ليست المرة الأولى التى يصاب
فيها أطاره بسبب تلك الأشياء المنتشرة بشدة على طرق القرية البدائية .. أعلم

أنها تكلفه كثيراً من حيث الجهد و المال تغيير تلك الأطارات الحمقاء ..
أنهيت عملى .. سرت نحو المخزن الذى يقع فى نهاية القرية بهدوء بعد أن
تلاشى غضبى .. مضيت هادئ البال و قد شعرت ببعض الراحة أدندن بموال
قديم أحبه أقطع به الطريق الطويل الذى يستغرق عادة نصف ساعة

لم أعرف أن عند منتصف تلك الليلة ستشعر زوجتى بالتعب .. نادت
على الخادمة التى هرعت إليها على الفور .. كانت تصرخ من الألم .. هرعت
الخادمة للبيت المجاور لأيقاظ أخت زوجتى .. تطرق على الباب بعنف حتى
يستجيب أهل الدار .. تكتشف أختها أن زوجتى على وشك الولادة .. يهرع
محمود للقبالة التى تسكن فى بيت قريب منا .. يتفاجئ بعدم وجودها نظراً
لذهابها إلى قرية مجاورة فى ولادة أخرى مفاجئة .. زوجتى ترقد
مستسلمة .. ينساب العرق منها .. تتلوى من الأنقباضات العنيفة التى
تجتاحها .. تتنفس بصعوبة .. يحتقن وجهها .. الطبيب أخبرنا أن حالتها
دقيقة و ستحتاج لجراحة عندما يحين موعد ولادتها و لكنه لم يكن
ليستشف القدر ليعرف أنها ستنجب بعد سبع .. أخت زوجتى تبكى و هى
ترى علامات الحياة تختفى من على وجه أختها الوحيدة .. يقترح محمود
الذهاب إلى المستشفى فى المدينة .. تلف أختها عباءة واسعة على جسد زوجتى
و يشدوا عليها بعض الأعطية .. تسندها الخادمة و أختها بصعوبة نحو

الباب .. يستيقظ بعض الجيران على الصوت .. تقف النساء على أبواب البيوت عاجزة أمام حالتها الصعبة .. تخرج إلى الشارع و هي تسير بأعياء .. تجلس على الكرسي الخلفى و هي تمسك بوهن ببطنها المنتفخ .. لا تشعر أنها بدأت تنزف ببطء .. خيط من الدماء ينساب منها بشكل طفيف .. يدير محمود مفتاح السيارة .. تتحرك السيارة ببطء و بدون أتران على غير العادة لبضعة أمتار .. يهبط محمود ليكتشف أن أحد إطارات السيارة فارغ .. فى طريقه لأستبداله يكتشف أن إطار آخر فارغ أيضاً .. يقف عاجزاً و هو يخبط بيده على السيارة بئأس .. تبكى أخت زوجته عندما يطلعها همساً على الوضع .. ينظر فى شفقة إلى المسكينة التى تلقى مصيرها داخل السيارة .. يحاول التفكير فى حل .. يطرق إلى الأرض عجزاً .. و..

صراخ زوجته يعلو فجأة ليشق سكون الليل .. و نزيف الدماء المتواصل بدأ يزداد

انتحار فانتل

أحكم لف الحبل جيداً حول مروحة السقف الضخمة التي تتوسط غرفته الصغيرة .. تأكد أن الحبل يمكن أن يتحمل وزنه .. عقد بأحكام حلقة فى نهاية الحبل ثم مرر يده عبرها .. أنتهى فأفلت الحبل و تابعه و هو يتأرجح فى فضاء الغرفة .. هبط من كرسيه .. أبتعد بضع خطوات وألقى نظره أخيرة .. كل شئ أصبح جاهزاً الآن .. لم يعد ينقصه سوى لحظة تنفيذ مخططة الجنونى

تطلع للحبل المتدلى من السقف .. أغمض عينيه فى حلق .. ثوان و ينتهى الأمر .. أستهلك كل الخيارات و لم يعد أمامه طريق آخر يتسع لخطواته سوى طريق الموت .. حياته أصبحت عبء لم يعد بقادر على تحمله .. حاول كثيراً و لكن الفشل لازمه بأصرار فى كل خطوة أتخذها فراراً لواقع أفضل .. عاندته الظروف و القدر و رسمت له طريقاً ينتهى دوماً مهما تعب من حيث بدأ .. أختل توازن عربته تحت وطأة ضربات الحياة ، و ضاقت عليه الدنيا فلم يجد بداً تمتد إليه بالحل سوى يد الموت..

و رغم أنه عزم أمره .. ما زال يشعر بقلق يسيطر عليه .. تهاوى على طرف سريره يعيد أستجماع شجاعة بدأت تفلت منه .. لم يكن قراره عشوائياً أو وليد لحظة أندفاع أو عاطفة حمقاء .. فكر كثيراً حتى أرتاح لقرار لم يتخيل يوماً أن يمنحه حق المرور بخاطره .. لم يمتلك فى أى لحظة من لحظات حياته جرأة كافية ليتخذ قراراً بهذا الثقل ، و لكن الفشل أكسبه شجاعة لم يعهدها فى نفسه .. فشله المتواصل فى الحياة لم يكن له حل سوى انسحاب ناجح منها .. خاض حرباً طويلة النفس أرهاقته مع واقع مؤلم خرج منها كالعادة متخن الجراح .. فقد قدرته على أستجماع قواه مرة أخرى لمعركة قادمة على أمل نصر لن يأتى .. و لم يعد لديه الصبر ليتعايش مكسوراً مع جراح تزيدها الأيام و ألسنة الناس ألتهاباً

مثل كل البشر .. كان لديه طموحات و أحلام لم تكن بالكبيرة لتثير القدر ضده .. طموحات صغيرة بمقدار حظه فى العالم .. و ليعترف .. بمقدار مواهبه أيضاً فيه

قالوا عنه أنه مهمل .. خامل .. كسول .. دوت تلك الكلمات كثيراً فى أذنه دون أن ينكرها .. طلاقات أصابت سمعته المهتزة و أتهامات وجهها له الجميع لم يتبرأ منها .. يعلم أنه يمتلك كل تلك الصفات و أكثر .. صفات نمت بداخله من صغره لم يدرك قسوتها إلا متأخراً .. أمه الوحيدة التى

ساندته فأقنعت نفسها و أقنعتة أنه سوء الحظ .. ولكن .. لعل الحظ برئ من دمه .. يدرك أنه كسول بالفعل .. و أن كلام الناس رغم قسوته و ما به دوماً من مبالغة صحيح .. لم يفلح يوماً فى عمل و تعثر طويلاً فى دراسته .. حاول أن يثور و يغير من نفسه .. يتمرد فيتخلص من ذاته القديمة .. يرسم خيوط جديدة غير خيوط الفشل التى سارت عليها حياته و لكن من قال أن الطبع يغلب التطبع مر بالتأكيد بمحنته .. لم يعلم تحديداً كم مرة حاول و لأى مدى توغل فى طريق مغاير .. كم مرة حملته قدماء بعيداً و وفرح بنجاحات مؤقتة فى حربه مع الحياة لأن الأمور دوماً كانت تأتى بنفس النهاية .. صحيح أنه لم يسمح لليأس أن يتسرب كمرض خبيث إليه .. واجه نفسه بقسوة مرات عديدة .. حاول أن يتخلص من تلك الصفات التى ألصقت به حتى عرف بها و لكنه كان يعود بعد كل محاولة إلى نقطة الصفر مهما طال الأمر.. تعب من محاولاته الشاقة مع عالم يعجز عن التكيف مع متطلباته و لا تؤهله قدراته ليدور معه بنفس سرعته .. يأس من السعى وراء أحلام يدرك أن الواقع لن يمنحه الفرصة لتحقيقها .. مهمل هو لا ينكر الأمر و لكنه حاول .. و لم يعد يهمه الآن ما يقوله الناس عنه .. على الأقل لم يكن يوماً بالجبان و أختار بأرادته الطريق الأصعب .. و لديه شجاعة كافية لإنهاء مسرحية وجوده الفاشلة بالنهاية التى تشيع غرور جمهور طالما

تابعها بشغف كبير..

ما زال يشعر بتوتر لا يدري مصدره .. شئ غامض يسيطر على أنفعالاته
ينبض مع قلبه و يسرى فى عروقه فلا يستطيع أيقافه .. شعور غامض
يرتجف له جسده .. لعله الخوف .. لحظة الانتقال الأخيرة – و الأولى –
لعالم مجهول لم يفر أحد من أسواره و لم تهتك أسرارہ بعد .. من أدراه أن
العالم الجديد لن يكون ملوثاً كسابقه .. قاسياً عليه بلا قلب كالذى فر منه ..
أو لعل الأسوأ ينتظره .. رهان صعب لكنه مجبر حتى النهاية على خوضه ..
أحرق كل أوراقه الراحبة و لم يعد لديه أمل فى الفوز فليغامر إذن بباقي
أوراقه .. أرض جديدة يلقي نفسه بين أحضانها لن تكون أقسى عليه من
الحياة وسط عالم يلفظه .. أبتسم بمرارة و هو يتذكر حياته .. ماضى تحول
لشيخ مفزع يترصده باستمرار .. واقع يبادلہ العداء و مستقبل ينتظر ككمين
معد مسبقاً لأستنزافه أكثر .. تجربته المريعة فى الحياة تدفعه للأقدام نحو
أى أرض جديدة حتى لو كان الطريق الوحيد إليها يمر عبر بوابة الموت ..
قصته من البداية كتبت كمأساة لم يكن لها أن تحظى بترف النهايات
السعيدة .. سينهى مأساة وجوده كما يجب أن تنتهى بفاجعة ربما يصفق لها
الجمهور أخيراً و تحوز بعض الرضا ، أو على الأقل بعض التقدير و الشفقة
لحياة بائسة ..

نهض يذرع الغرفة قليلاً لعله يقضى على التوتر الذى يجمد أطرافه ..
ترى ماذا ستكون ردة الفعل عند اكتشاف جثته .. هل تشيعه الألسن الحمقاء
بالرحمة أم تصفه بالجنون .. بسخرية تتناول سيرته أم بشفقة تغلفها بعض
العاطفة .. اللعنة علي كلام الناس .. على الأقل لن يتهمة أحد مجدداً بالفشل
بعد أن أختار الطريق الأصعب بأرادته و نجح فى عبور جسر تنهار عند
الأقتراب منه شجاعة أشد الرجال تماسكاً .. لن يشغل باله الآن برأى
الناس .. ولولا أمه لنفذ الأمر من فترة طويلة .. هى وحدها من تشغل باله
فى تلك اللحظة .. مسكينة هى .. لم تسبح مع تيار كلام الناس .. ظلت على
أيمانها به للحظة الأخيرة .. أيمان لا يستند على أى سبب لكنه قوى .. لو
فكرت قليلاً لأدركت أنها خاطئة ، و لكنها لم تفكر به إلا بقلبها .. لا
يرغب أن يتسبب لها بأى ألم و لكن .. أليس من المؤلم لكلاهما أستمراره
هكذا .. ربما تدرك لاحقاً أن قراره كان صائباً ليريحها من عبء تحملته
طويلاً .. كان عليها أن تياس منه كما فعل الناس لعله يرتاح قليلاً من عذاب
الذنب الذى يملكه الآن نحوها .. كان عليها أن تتوقف عن زرع الأمل
بداخلها و بداخله و تدرك مبكراً أن أرضه بوار لا تنبت سوى المارارة و
الفشل ..

هز رأسه فى عنف .. لن يسمح للتردد أن يسيطر عليه فى لحظاته

الأخيرة .. أستجمع شجاعته أو ما توافر منها و أقترب من الكرسي .. صعد فوقه .. بيد هربت منها الدماء وضع الحلقة حول رقبته .. مرارة قاسية يشعر بها فى حلقه .. لما تهاجمه الآن .. ماذا لو منحته العالم بعض الحظ .. وصبر عليه الناس قليلاً .. لم يكن يوماً طماعاً أو مبالغاً فى أحلامه .. فقط بعض الحظ و قليل من النجاح يكفيه ليعيد تلوين حياته بألوان سعادة لم تعرفها .. رفع عينيه للسماء بحيرة .. هل يفعلها .. أحرق كل قوارب النجاة و لم يعد لديه الطاقة للسباحة مجدداً فى بحور تملأها دوامات الأحباط .. غصة تهاجم حلقه و رعشة تمسك بأطرافه .. هل هناك طريق آخر لم يسلكه من قبل .. حل لم يفكر فيه .. عصر ذهنه فى الأمر كثيراً من قبل ، و لم يزد التفكير سوى أيماناً بقراره .. تنفس سريعاً لعله يطرد كل خواطره .. ضيق بيده الحلقة حول عنقه .. شعر بخشونة الحبل على جلد رقبته .. أغمض عينيه بألم مرغماً ذاكرته العنيدة على استدعاء صور من يحبهم فى لحظاته الأخيرة .. أبتسم رغماً عنه عندما مرت بذهنه صور خطيبته .. لما كتب عليه القدر أن يعيشها لهذا الحد طالما كان سيفارقها .. و أمه التى يذوب عشقاً فى أبتسامتها .. و لمسات يدها الحانية التى تسمح كل جراحه .. سيفتقد كل ذلك بالتأكيد .. اللعنة على تلك الذاكرة .. كان عليها أن تعانده و ترفض طلبه .. أهتزت أقدامه على الكرسي فأرتجف قلبه .. تدافعت الأفكار بقوة داخل

عقله .. فكر بسرعة و تساءل .. هل هناك فرصة أخرى يمكن أن ينفذ منها حياة أفضل .. صحيح أنه خسر خطيبته و لكن يمكن أن يعوضها .. صحيح أنه فشل في كل عمل قام به و لكن النجاح الحقيقي يأتي دوماً متأخراً .. لما لا يمنح نفسه هدنة ثانية .. فرصة للعودة يكفر بها عن هفواته و يتصالح فيها مع نفسه و العالم لعله يجد مخرجاً لأخطائه..

أخرج رأسه من الحلقة .. نبض قلبه بعنف و هو يحدق في الحبل المتأرجح أمام بصره تماماً .. تحسس عنقه بلا وعى .. هبط من كرسيه .. خذلته أقدامه و لم تعد بقادرة على حمله فتهاولى على سريره يرتجف .. دفن رأسه بين كفيه يفكر .. هل يتراجع في قراره الآن .. لم يعد يدرى .. يوشك أن يسلمه التفكير للجنون .. صحيح الحياة جميلة و لكنها ليست له .. الأنتحار هروب لا ينكر ذلك .. و لكن البديل أن يبقى ليلعن حظه مع كل صباح ، و يعود كل مساء ليلعق جراحه .. و هو لم يعد لديه طاقة لتحمل ضريبة خسائر أخرى..

لا .. لن يتردد تلك المرة .. تنفس بعمق .. فتح عينيه .. أقترب من الكرسي بسرعة و خطا فوقه .. أمسك بالحبل لثوان ثم أحكم وضعه حول رقبته .. لن يمنح نفسه أملاً زائفاً .. و لن يقبل أن يعود ليمثل دور الرضا بحياة مثيرة للشفقة .. ما زال قلبه ينبض بعنف .. عليه أن يهدأ قدر

الأمكان قبل لحظة التنفيذ .. يريد أن يغادر العالم بسلام قليلاً ما أحس به ..
يغادر بطمأنينة بعد أن عاش طوال عمره يرتجف خوفاً من كل شئ حوله ..
أرتجفت قدماه فأهتز الكرسي .. ضغط الحبل على عنقه أكثر .. تسارعت
نبضات قلبه و زفر أنفاسه بقوة .. نظر للأرض أسفل منه .. خطوة أخيرة
باقية .. يترك جسده للفراغ و مصيره للقدر .. خطوة و يصبح كل ماضيه بلا
قيمة وراء ظهره .. رفع رأسه إلى السماء .. يقولون أن المقبل على الموت يرى
صور حياته قبل رحيله .. أبتسم بسخرية .. آخر ما يرغب أن يراه قبل موته
هو صور حياته الفاشلة .. ثوان و ينتهى الأمر على أى حال ..

حبس أنفاسه .. نقل قدمه نحو حافة الكرسي ببطء .. تفاجئ بدمعة
تنحدر من عيناه ، هو الذى لم يعتاد أن يبكي مهما كان الألم الذى يتعرض
له .. ولكنه يقف على حافة أكبر من قدرته على ادعاء الشجاعة .. ترى هل
أخطأ .. تسرع كالعادة .. أندفع وراء خلاص سريع لهموم مؤقتة .. و أمه ..
هل كان أنانياً عندما عزم أمره دون أن يفكر فى مصيرها بعده .. هى التى
أخذته عكازاً تستند عليه من عثرات الأيام فتهاوى بها مبكراً .. و خطيئته
كيف تخلق عنها بسهولة .. الحب الذى أنتظره طوال عمره و دعا طويلاً أن
يأتيه فهرب منسحباً منه بعد أول معركة واجهها .. و الناس .. لما سمح
لبضع أفواه حمقاء أن تحكم على حياته و تقود حياته بجنون لتصل بها إلى

هوة النهاية .. نهاية لم تراود خياله يوماً وأو تتمثل له فى أسوأ كوابيسه رغم وفرتها .. لا .. لن يسمح لنفسه بأنسحاب سريع مخجل أمام وهم يسيطر عليه .. ثقته بنفسه على تجاوز الفشل ما زالت قوية رغم كل ما مر به .. لن ينهى حياته بفشل جديد يتندر به الناس .. يؤمن أن ما زال لديه الأفضل .. يشعر فى عروقه بدم الحماس ما زال يتدفق فيها .. و طاقته لم تنفذ بعد .. سيعود ليثبت لنفسه قبل أن يبرهن للآخرين أنه قادر على هزيمة أعدائه بنفسه .. لن يسمح للكسل و الفشل أن يكونا عنوان حياته و ملخصها بعد الآن .. لن تلتصق به تلك الصفات مرة أخرى .. سيعود للحياة أكثر تصميمًا .. و خطيبته سيحارب العالم من أجلها .. و أمه .. ما أجمل حضنها .. سيبرهن أن ثقته فيها كانت فى محلها تماماً .. و لن يؤذى القلب الذى طالما أتسع لأحزانه ..

هم بالنزول من على كرسیه .. مد يده نحو الحلقة التى ضاقت بأحكام حول رقبته .. فى تلك اللحظة أهتز جسده .. أرتجت الأرض بغتة تحت أقدامه .. سمع صوت شئ يتحطم .. قبل أن ينظر لأسفل تمايل الكرسي تحت ثقل جسده .. تهشم فجأة سريعاً محدثاً دوى خافتاً .. هوى جسده متأرجحاً فى الفراغ .. ضرب بأقدامه فى الهواء بلا وعى محاولاً العثور على شئ صلب يقف عليه بلا فائدة .. ضغط الحبل على عنقه أكثر .. أنسحب الهواء من

صدره فى دفعات سريعة متلاحقة .. أحتقنت عيناه بعد أن بدأت الدماء تندفع إليها بقوة .. تلون وجهه سريعاً بلون الدم .. بدأ يضرب بقدمه فى الهواء بقوة أكبر فلا يزيد سوى ضغط الحبل السميك على حنجرتة .. حاول أن يمسك بالحبل بيده و لكن قواه بدأت تخور .. جرب أن يصرخ فلم يخرج صوته .. فى لحظات بدأت صور حياته تتدافع أمامه .. أدرك وقتها فقط أنها النهاية و لكنه ما زال يقاوم و يرفضها .. شعر بحواسه تكتسب ثقل مفاجئ ... الأصوات تختفى تدريجياً من حوله .. تبهت الصور لتتلاشى ببطء .. الضوء ينسحب من أمام عينيه .. يفقد قدرته على المقاومة .. يختنق .. تنتاب جسده رعشة لا يستطيع أيقافها .. ترتجف أطرافه بعنف .. و .. ببطء يتسلل إلى عالم آخر لا يعرفه..

فى تلك اللحظة .. من كل الصور التى مرت فى ذهنه وقتها توقفت ذاكرته أمام واحدة منها .. لا يعرف السبب .. آخر ما يتذكره وجه أمه داخل غرفته أثناء حديث قصير معه .. ربما من يومان أو ثلاثة .. لا يستطيع تحديد الزمن بدقة .. لكنه يتذكرها جيداً و هى تهمس فى أذنه قبل أن تغادر " لا تنسى أن تصلح الكرسى الصغير لأن قدمه تبدو مكسورة " .. و لكنه أهمل الأمر كعادته .. نظر إلى الكرسى المحطم تحت قدمه .. أبتسم بسخرية و الدم يندفع إلى رأسه .. أغمض عينيه فى أستسلام تام تلك المرة .. و ترك جسده للفراغ بعد أن توقف عن المقاومة

قضاء و قدر

هل يمكن أن يحاسب الإنسان على القضاء و القدر .. حدثت هذه القصة لى منذ أكثر من ثلاثة و عشرين عاماً .. كنت قد تخرجت وقتها من كلية الطب .. شاب بأحلام كبيرة و طموح بلا حدود و لكن بأمكانيات محدودة لا تتلائم مع طموحاته .. جاء تعيينى فى قرية نائية لم أسمع بها مطلقاً ، و لم أجد من يستطيع أن يزودنى بأى معلومات عنها .. أستجمعت شجاعتى و توجهت إليها ذات صباح لأستلام أول عمل لى .. وصلتها ظهراً بعد رحلة شاقة تراودنى أحلام كبيرة فى النجاح .. و بمجرد أن أستكشفت القرية حتى شعرت بالغربة .. قرية فقيرة معظم بيوتها من طين تحيط بها من الأطراف العديد من البرك و المستنقعات .. طرقها غير ممهدة تختلط فيها رائحة الحقول بروث البهائم و قلة فقط من بيوتها تزورها الكهرباء .. لا يوجد فيها سوى مقهى واحد و علمت أن وسائل المواصلات تنعدم بها ليلاً .. للوهلة الأولى قارنت بينها و بين المدينة التى أعتدت العيش فيها .. شعرت بالفراغ و الوحدة .. و على الرغم من صدمة الانطباع الأول قررت أن أمضى قدماً .. فلم

يعد يهمنى الآن سوى أن أنجح فى وظيفتى الأولى ، وربما شعرت لاحقاً
بالراحة و السكون فى جو الريف الهادئ

أستلمت عملى فى الوحدة الصحية الخاصة بالقريه ، إن جاز أن نطلق
عليها هذا الأسم .. كانت عبارة عن بيت متهاك من طابق واحد يشمل
غرفتين أحدهما للكشف .. عرفت لاحقاً أنه كان ملحق بدوار العمدة قرر أن
يخصصه كمركز صحى لخدمة أهل البلد أبتهجاً بولادة ابن له .. يقوم على
خدمة المركز ممرضة عجوز و فراش من أهل البلد .. كان أول ما فعلته أن
قررت المبيت بغرفة الكشف حتى أجد سكناً ، فالقريه بالطبع تخلو من
وجود فنادق من أى نوع .. قمت بجرد للأدوات و الأدوية الملحقه بالوحدة و
التى عمل الطبيب السابق سجلاً بها .. سألت عن الأمراض الشائعة بين سكان
القريه و تعداد أهلها .. ثم قررت البدء فى العمل من الصباح بعد أن أستريح
من عناء السفر

فى الصباح بدأت العمل بعد أن حظيت بنوم مضطرب فى الليل .. لم
أعتاد النوم بصحبة كل هذا الكم الهائل من الحشرات .. كما أن النوم على
طاولة الكشف غير مريح تماماً .. أكتشفت أن معظم أمراض أهل القريه
متشابهة .. كثير منها ناتج عن سوء التغذية أو العمل تحت أشعة الشمس
الحارقة .. بعضهم عند الكشف كان يحكى عن أعراض كثيرة كلها متعارضة

لا تجتمع إلا لشخص مات فعلاً أو في طريقه لذلك .. أعدت على رؤية هذا النوع من المرضى .. يمكن أن تعطيه بعض أقراص الفيتامينات و تقنعه أنها أحدث دواء ليقفز بعدها من الصحة فى الصباح التالى .. لم تكن هناك حالات خطيرة سوى لفلاح عجوز وقع و أنكسرت قدمه .. لم أجد بداً من تحويله إلى قسم العظام فى الوحدة الصحية بمركز المدينة بعد أن قمت بعمل الأسعافات اللازمة .. أنتهى اليوم الأول على ما يرام .. و فى المساء تجولت فى القرية فلم أجد بها ما يلفت النظر .. قرية عادية تشعر أنك لو تمتلك آلة للزمن و عدت مائة سنة للوراء لألفيتها كما هى دون تغير .. و رغم أنى لم أكمل يومى الأول هنا و لكنى بدأت أفتقد سهراتى بالمدينة .. و خروجى مع أصدقائى كل ليلة .. بالإضافة إلى مجهودى لأتأقلم مع الحياة هنا مستقبلاً ، على أن أبذل مجهوداً آخر أكثر جدية لأنسى حياتى السابقة

كما توقعت مر أسبوع سريعاً بلا جديد .. الشئ الوحيد الذى طرأ عليه التغيير فى تلك القرية المنعزلة هو أنا .. أزدت هزلاً و شحوباً و لم أزل أعانى من الأرق ليلاً .. فى صباح اليوم الثامن و بينما أكشف على أحد المرضى سمعت ضجة عالية فى الخارج .. أقتحم غرفة الكشف فجأة بعدها رجل ضخم ذو شارب كث عرفت لاحقاً أنه عمدة القرية .. يحمل طفلاً صغيراً لم يتجاوز عمره ثمانى أعوام يبدو هزياً جداً .. ثرت على الممرضة التى

أُقتحمت غرفة الكشف وراءه حيث أنى أفهمتها من قبل بمنع دخول أى شخص أثناء قيامى بالكشف على مريض مهما كانت الأسباب .. و لكنها كانت تقف عاجزة تنقل بصرها حائرة بينى وبين الرجل الضخم .. تحولت إليه بعصبيه و صببت جام غضبى عليه .. جرى بيننا جدال عنيف عرفت منه أن أبنه سقط مغشياً عليه فجأة فلم يجد بداً من اقتحام الوحدة بهذا الشكل .. رغم ضخامته و مقامه كان منظره مثيراً للشفقة حقاً و هو يحتضن أبنه الصغير .. تمالكت نفسى قليلاً .. أنهيت الكشف على المريض و كتبت له بعض الأدوية سريعاً ثم توجهت إلى أبن العمدة .. حملته و وضعته برفق على طاولة الكشف بينما يلاحقنى العمدة بنظراته و هو يرتجف قليلاً من الأنفعال .. لم يستغرق الأمر سوى لحظات حتى أدرك أن الولد أصيب بضربة شمس قوية .. حرارته مرتفعة و معدل تنفسه بطئ .. منحته حقنة خافضة للحرارة و كتبت له بعض الأدوية ثم أمرت العمدة أن يعود بأبنه لبيته و وعدته أن أوافيه هناك بعد العيادة لمتابعة الحالة .. لم يجد العمدة بداً من تنفيذ تعليماتى .. أنهيت العمل فى الوحدة بعد ساعتين .. جلست مرهقاً .. دخلت الممرضة بعدها لتعتذر عما حدث .. علمت منها أنها لا تستطيع منعه حتى لو حاولت فهو كبير القرية و سيدها ، و الوحدة التى نعمل فيها كانت من أملاكه يوماً .. كما أنه لم ينبج سوى أبنين أحدهما فى التجنيد .. و لم

يتيق له سوى هذا الولد .. قبلت أعتذارها وأمرتها بالأنصراف .. رغم أرهاقي إلا أنى أعتدت أن أفى بوعودى .. توجهت لمنزل العمدة الذى لم يكن من الصعب العثور عليه فهو ملاصق للوحدة .. دوار كبير حقاً ينبئ بمكانة صاحبه .. أستقبلونى بلهفة .. قادونى إلى الطفل المريض بسرعة .. أنخفضت حرارته قليلاً ولكنها ما زالت تثير القلق .. طلبت بعمل كمادات له وظللت طوال الليل بجواره .. أتى لى العمدة بالطعام بنفسه وتبادل معى الحديث .. قررت المبيت بجوار المريض لمتابعة حالته وقام العمدة بواجب ضيافتى على أكمل وجه ، وفى الصباح كانت الحرارة قد أنحسرت وبدأ الولد يتنفس بشكل طبيعى وإن كان ما زال بحاجة لمواصلة العلاج والراحة لعدة أيام .. خرجت بعدها للوحدة لأواصل العمل وأنا أقاوم النوم بصعوبة .. وفى المساء زارنى العمدة .. كان شخصاً آخر .. ممتلئ قوة ومهابة ويرتدى جلباباً فاخراً من الصوف .. كانت المريضة على حق عندما لم تعترض طريقه .. حمل هدايا كثيرة وشكرنى بشدة على المجهود الذى بذلته .. قال أنه لولاي لفقد الولد وأثنى كثيراً على براعتى .. أعلم أن كلامه به مبالغة ولكن المديح أطربنى ، لأول مرة أجد شخص يثنى على عملى .. تبادلنا الحديث طويلاً .. وعندما علم أنى أنام فى الوحدة شفق من المفاجأة .. كيف لطبيب مثلى أن ينام هكذا .. أمر بتجهيز بيت خاص بالضيوف ليصلح مكاناً لسكنى وأقسم

أن أبيت فيه .. عندما ذهبت إلى هناك أحسست أنى انتقلت للجنة مقارنة
بالمكان الذى كنت أسكنه مؤقتاً .. بيت من طابق واحد واسع به غرفة نوم
كبيرة مجهزة بناموسية و حمام و مطبخ .. لم أكن لأحلم بأفضل من هذا فى
تلك الظروف .. و أمعاناً فى مكافأتى خصص لى خادمة ترعانى

لأول مرة أنام بعمق منذ مجيئى إلى هنا .. تحسنت أحوالى كثيراً بسبب
المسكن الجديد .. و الأهم بسبب الخادمة التى وفرت لى العديد من وسائل
الراحة لشخص مهممل بطبعه مثلى .. امرأة متوسطة العمر تتفانى فى
عملها .. أعود لمنزلى فأجد طعامى جاهزاً .. تغسل ملابسى و تنظف المنزل
قبل عودتى .. أزداد وزنى بشكل ملحوظ خلال أسابيع قليلة بعد أن أصر
العمدة على تزويد منزلى دائماً بشتى أشكال اللحوم و الخضروات و
الطيور الطازجة .. بدأت أتأقلم على الحياة و العمل هنا خاصة أن العمدة
صادقنى و أعتدت السهر فى دواره كل ليلة مع أعيان القرية .. و أكتشفت أن
العمدة مثقف حيث درس فترة فى المدينة فدارت بيننا مناقشات فكرية
كثيرة وثقت الصداقة بيننا .. و بدأت الحياة العابسة فى القرية تظهر على
وجهها أبتساماة ضئيلة لى

كنت أنهى عملى عادة فى الثالثة و أعود للمنزل فأجد كل شئ مرتباً و
الخادمة قد أنصرفت .. أحياناً كنت ألقاها عند عودتى تستعد للمغادرة

فأهبتها بعض النقود ، أو أطلب منها حمل الطعام الدسم الذى أعدته معها حيث كنت أتناول الطعام مع العمدة فى كثير من الأحيان .. وهكذا مضت أسابيع .. حتى أنهيت عملى فى أحد الأيام مبكراً .. لم تكن الوحدة مزدحمة بالمرضى كالعادة فى هذا اليوم و عرفت بالمصادفة أن هذا هو موسم حصاد المحصول حيث ينشغل الجميع .. حتى المرضى منهم أو المتماثرين وكبار السن يذهبون للعمل .. لم أجد ما أفعله فى الوحدة فتوجهت إلى منزلى القريب طلباً للراحة و طلبت من الممرضة إبلاغى إذا كانت هناك حالات طارئة .. دخلت المنزل فسمعت حركة أوانى فى المطبخ .. لا بد أن الخادمة تطهو الطعام .. تعمدت أن أسعل بصوت عالى حتى أنبهها لوجودى .. لفت انتباهى رائحة المنزل الجميلة .. جلست أدخن قليلاً أنتظاراً لقدوم الطعام و أنا أقرأ أحد المجلات القليلة التى أحصل عليها بصعوبة من القادمين من المدينة .. لم أكد أنهى سيجارتى حتى سمعت وقع أقدام تقترب من الغرفة .. وضعت صحن الطعام أمامى و أنا أقرأ .. أزحت المجلة جانباً و نهضت لأساعد الخادمة فى وضع الصحن الكبير .. رفعت بصرى .. تفاجئت بأمرأة أخرى

تسمرت فى مكانى للحظات .. نعم .. امرأة أخرى غير الخادمة .. صبية شابة لم تتجاوز التاسعة عشر .. بمجرد أن وضعت الطعام حتى لفت شالها

على وجهها من الخجل و أنصرفت بسرعة .. ثم عادت بأبريق من الماء تحملها بيد و باليد الأخرى ما زالت تخفى وجهها بشالها .. وقفت بانتظار أوامرى .. بالطبع سألتها عن الخادمة .. أجابتنى بصوت منخفض من الحياء أنها أبنتها و علمت منها أن أمها مريضة و لم تستطع القدوم فحلت مكانها .. كنت أعلم أن للخادمة بنتاً و طفلين صغيرين و أن زوجها توفى من فترة .. و لكنى لم أتخيل أن أبنتها على مشارف الشباب و جميلة بهذا الشكل .. أخبرتها أنى لست بحاجة لشئ .. أنصرفت بعدها مغادرة المنزل و أغلقت الباب وراءها .. أقبلت على الطعام و أنا أفكر فيها .. فى الواقع لم أتذوق طعاماً أشهى من الذى صنعته من قبل .. حتى الماء كان له طعم مختلف بعد أن أضافت إليه بعض ماء الورد فنزل برداً و سلاماً على معدتى المتخمة .. و على الرغم من أنى لم أرى إلا نصف وجهها .. إلا أن الجمال لا يمكن أخفائه .. فى المساء سهرت مع العمدة .. سألته بشكل غير مباشر أثناء حديثنا عن الخادمة .. عرفت منه أنها أرملة معدمة مات زوجها من فترة بسيطة فخرجت للعمل .. علمت أنها أنجبت أبنتها و هى صغيرة ثم قضت سنوات طويلة بدون أنجاب حتى رزقت بولديها و أنها كانت تخدم فى بيته قبل أن يلحقها بخدمتى اكراماً لى ، و أنه يشهد بأمانتها و كفاءتها

بالطبع لم أحكى له أن بنتها جاءت لخدمتى اليوم بدلاً من أمها

المريضة .. الغريب حقاً أنها لم تفكر بزيارتي رغم مرضها .. يبدو أن بعض سكان هذه القرية لا زالوا لا يثقون بالطبيب و يفضلون عليه الوصفات القديمة المعتادة من بعض العطارين المعروفين فى القرية

فى اليوم التالى عدت من العمل مبكراً .. وجدتھا هناك .. ترتدى ثوباً جديداً فاتح اللون زادھا جمالاً .. ظهرت حمرة الخجل على وجهھا عندما رأتنى .. لم أستطع تبادل أى حديث معها يومھا لأنها أنصرفت بمجرد أن وضعت الطعام .. ولكنى فى اليوم التالى صممت على العودة أبكر من المعتاد .. تفاجئت بعودتى .. لم تكن أعدت الطعام بعد و لهذا اضطرت للبقاء حتى الانتهاء منه .. بدأت أتجاذب معها أطراف الحديث و هى ترد على أسئلتى بأجابات موجزة مقتضبة لا تشفى غليلى .. قبل الأنصراف أهديتها بعض الفاكهة التى أشتريتها و بعض الأدوية لأمھا بعدما سمعت منها بأيجاز عن حالتھا

مر أسبوع سريعاً و زادت الألفة بيننا تدريجياً .. أصبحت لا أفكر ليلاً أو نهاراً إلا فيها .. لم أكن شاباً ساذجاً قليل الخبرة بعالم النساء .. قمت بالعديد من المغامرات أيام دراستى قبل مجيئى إلى هنا .. و هى فتاة لا تجيد التحدث أو إبراز مفاتنھا كما تجيد فتيات المدينة .. فما سر أنجذابى إليها أذن .. ربما بسبب الفراغ الذى أشعر به هنا .. أو لأنها مختلفة .. لم أعرف

فتيات يشبهنّها من قبل .. فاكهة جميلة بكر لم تسقط بعد من أغصانها ، و
لم تمسّها يد من قبل .. و رغم تبسطها معى فى الكلام قليلاً إلا أنى لا زلت
ألاحظ تحفظها عندما تكون معى .. تحافظ على مسافة بيننا عندما أكلّمها ..
تبقى على باب البيت مفتوحاً عندما أعود .. و على النوافذ أيضاً و لأن البيت
من طابق واحد ملئ بالنوافذ فيسهل على أى مار رؤية كل ما فيه .. لم أرها
يوماً تلبس ملابس قصيرة أو منزلية بسيطة رغم أنها تنظف البيت يومياً ..
يبدو أنها تقوم بهذا بمجرد مجيئها فى الصباح عندما أكون فى ذروة عملى
فى الوحدة

أستعنت بكل الأساليب التى أعرفها لأستمالتها و تنوعت طرقى فى
ذلك .. أصبح كل فكرى مقصوراً عليها .. تيقظت بداخلى حاسة صياد قديم
كنت قد نسيته .. و بدأت أحكم شباكى أنتظاراً لفريسة ثمينة .. أستطعت
فى أحد الأيام أن أمسك يدها بحركة بدت عفوية و أبقيتها فى يدى لأطول
فترة ممكنة .. أستملت قلبها بالعديد من النوادر عن المدينة و التى كانت
تطرب لسماعها .. أثرت شفقتها بحديثى عن الوحدة التى أعانى منها و
حاجتى لأمرأة لتشاركنى حياتى المضطربة .. و عندما شعرت أنها أقتربت
من الشباك .. أنتهزت الفرصة و أغتنمت منها قبلة أسرع بعدها بالفرار من
البيت خجلاً

كانت خطتي تسير على ما يرام إذن .. أيام و تقع بين يدي .. أخيراً بعد عشرة أيام من مطاردتها .. فى اليوم التالى عدت مبكراً كالعادة أحمل بعض الهدايا أشتريتها من المدينة بعد أن أوصيت أحد زملائي هناك بأرسالها مع واحد من التجار هنا .. أشتريت الكثير من الفاكهة و الحلوى .. كنت أدندن من أغنية أحبها و أنا أدلف للدار .. سمعت صوت جلبة فى المطبخ .. لا بد أنها هناك .. أخفيت الهدايا و ناديت عليها .. أستغرق الأمر لحظات قبل أن أسمع صوت أقدامها .. عندما خرجت من المطبخ .. أصابتني صدمة

ليست هى .. على باب المطبخ ظهرت أمها .. و للحظة عجزت عن الكلام .. هل أشتكت لأمها أنى عاكستها .. هل أحست أمها بشئ فجاءت لتنتقم .. و لكن أمها قطعت على حبل أفكارى السوداء لوناً و خيالاً عندما جأنى صوتها الضعيف لتخبرنى أنها تعافت من مرضها ، و رأت العودة من جديد للعمل .. عاودتنى الطمأنينة عندما لم أتنين فى وجهها أى ملامح للشر أو الغضب .. كتمت سؤالاً كاد يقفز من طرف لسانى لأسأله عن أبنيتها .. هنأتها على سلامتها رغم أنى رأيت علامات الأجهاد بادية بوضوح على وجهها .. يبدو أنها عانت من مرض قاسى فعلاً .. و لم تبرئ منه تماماً .. تناولت طعامى بلا شهية .. قبل أنصرفها أشرت إلى الفاكهة و الحلوى و أمرتها ان تحملها لبيتها .. لم تنسى أن تشكرنى على الأدوية التى أرسلتها

و التي كانت سبباً فى سرعة شفائها .. لأول مرة طوال حياتى ألوم نفسى
لأنى كنت السبب فى شفاء أحد .. اللعنة .. ليتنى لم أرسل الدواء .. كنت
على بعد خطوة فقط من نيل مرادى قبل أن ينهار كل شئ فجأة

لا أعرف لما أحسست بالأحباط يومها .. كان الأمر كله عبثاً .. من البداية
مجرد لهو .. رغبتى الرجولية فى أثبات ذاتى بأيقاع شابة بريئة فى
حبالى .. مغامرة أخرى أسترجعها لاحقاً عندما أكبر و أبتسم دون اهتمام بما
يحدث للفتاة لاحقاً .. ربما كان هذا ما يحركنى فى البداية .. ولكنى بدأت
أحس بأنجذاب شديد تجاه هذه الفتاة لا أعلم مصدره .. أنجذاب حقيقى
صادر عن عاطفة لم أعرفها من قبل

فى الأيام القليلة التى كانت فيها معى كنت أعيش فى جنة هى التى
صنعتها .. فى المرات المعدودة التى حاورتها ، و رغم نشأتها الفقيرة ، إلا أن
حديثها كان يدل على ذهن متوقد و نكاء فطرى .. مجرد وجودها حولى كان
يريحنى و يضىء جو من الدفء على المنزل لا أشعر معه بالوقت .. مجنون
أنا لأفكر بخادمة بهذا الشكل .. و لكن المشاعر ليست لها منطق فمن يستطيع
السيطرة عليها .. كل محاولتى لنسيان الأمر جاءت بنتيجة عكسية تماماً
فبدأت أفكر فيها أكثر .. اشتاق إليها .. فى فترة غيابها تواردت خواطر
كثيرة فى رأسى و تصادمت .. لم أعد قادراً على التركيز أو التفكير فى شئ

آخر .. لكن الشئ المؤكد أنى كنت أرغب فى رؤية هذه الفتاة مرة أخرى بأى
ثمن

مرت أربعة أيام وكدت أجن .. كان لا بد لى أن أراها بأى شكل ..
لاحظت الخادمة توترى فأرجعته إلى ضغط العمل .. فقدت شهيتى تماماً
فكنت أطلب منها أن تأخذ الطعام الذى تعده إلى بيتها خاصة أنها ما زالت
فى مرحلة النقاهة و تحتاج لتغذية جيدة حتى تستعيد قواها .. فى اليوم
الخامس أنتابتها كحة شديدة .. عرضت أن أكشف عليها و لكنها تراجعت
بخوف و رفضت بحزم .. هذه المرأة تخاف إن من الكشف عند طبيب
رجل .. ذلك هو السر فى عدم مجيئها إلى عند مرضها الأول .. فى اليوم التالى
زادت حدة الكحة لديها .. كنت أعلم بحكم خبرتى أنه مجرد التهاب فى
الحلق أهمل علاجه و لن يسبب خطورة كبيرة على صحتها على أى حال ..
فى ظهيرة اليوم التالى فى الوحدة كنت أعيث بمحتويات بعض الأدوية بعد
أن فضلت فى الفترة الأخيرة أن أقضى فترة راحتى هناك بعيداً عن البيت
الذى يثير لدى ذكريات لا أستطيع كبتها .. وقعت يدى على بعض المواد
فخطرت لى فكرة لا أعلم كيف واتتنى .. غزت عقلى بسهولة .. لا أدرى كيف
أنهارت أمامها كل ملكات العقل و المنطق لدى و كيف وجدت قبولاً سريعاً
عندى .. فكرة خبيثة حاولت أن أطردها من تفكيرى فلم أفلح إلا فى جعلها

تستولى على مزيد من خلايا تفكيرى المشغول بالفتاة .. أعلم بالطبع أن الخادمة مصابة بالتهاب فى الحلق .. بيدى مادة لو تناولتها تزيد حدة الحالة لديها .. بالطبع لن تعرض صحتها للخطورة و لكنها ستجبرها على المكوث فى المنزل .. أعراضها مؤكدة .. لن تستطيع الكلام و ستصاب بصعوبة فى التنفس و ربما ترتفع درجة حرارتها قليلاً .. لن تستطيع النهوض للعمل على أى حال .. ستزول الأعراض بعد عدة أيام بشكل طبيعى دون أن تصاب بضرر .. لن أعرض صحتها للخطر بالتأكيد .. و لكن بأمكنى فقط أن أضعف مقاومة جسمها للمرض قليلاً فلا تستطيع النهوض للعمل .. عندها فقط .. سترسل أبنيتها بالتأكيد مرة ثانية لخدمتى بدلاً منها .. لمعت عينائى و أنا أتدبر كل هذا .. الغريب أنى لم أجد أدنى مشكلة أو صعوبة فى تقبل الفكرة نفسها.. و لكن فى كيفية تنفيذها .. كيف أعطيها المادة دون أن أثير شبهتها لو أعطيتها المادة على شكل دواء ستمرض بعدها و ستوقن بأن الدواء هو السبب .. بعد طول تفكير .. وجدت أن أنسب طريقة هى أن أضع المادة فى الطعام فالمادة بلا رائحة أو طعم قوى مميز .. بعد الظهر بساعة عدت لمنزلى .. تظاهرت أنى متعب قليلاً .. أمرتها بغسل بعض الملابس .. ذهبت لتنفيذ أمرى فتسللت للمطبخ الصغير .. كنت أعلم أن العمدة أرسل لى طعاماً من منزله .. دسست المادة فى بعض الأواني الموجودة .. عندما أنتهت أخبرتها

أنى لست أشعر بأى شهية للطعام .. طلبت منها أن تحمل الطعام لمنزلها و
تحرص على تناوله حتى تستعيد صحتها .. نظرت إلى شاكرا .. ناولتها
بعض الفاكهة التى أشتريتها أيضاً .. أنصرفت و هى تتمتم لى ببعض
الدعاء .. أحسست بقلبي ينبض بقوة و أنا أراها تحمل الطعام فى طريقها
لمنزلها .. أوشكت أن أفزع من مكاني و أعترض طريقها لأعترف لها بما قمت
به .. منعت نفسى بصعوبة و جلست و العرق الغزير ينساب منى

قضيت طوال الليل قلقاً من عواقب ما فعلته .. لم أستطع النوم .. فى
الصباح لم تأت الخادمة .. الخطة تسير على ما يرام إذن .. توجهت لعملى
بحماس أكبر من المعتاد .. عدت مبكراً متوقفاً أن أجد الفتاة .. و لكن لم يكن
هناك أحد بالمنزل .. لم تأتى هى ، أو ترسل أبنيتها .. كنت مرهقاً من التفكير
طوال الليل فغفوت قليلاً .. أستيقظت على صوت فراش الوحدة يناديني من
الخارج لحالة طارئة .. ارتديت ملابسى ساخطاً و أنا بين اليقظة و النوم ..
فى الوحدة أكتشفت أن الحالة لصبيان .. طفلان أحدهما فى الثالثة و الثانى
يكبره بعامين .. أحدهما وجهه أزرق يعانى من صعوبة فى التنفس و يمسك
ببطنه بشده بينما الثانى جسده ساكن بشكل مثير للقلق .. أنتبهت فوراً و
طار النوم من عيني .. من الواضح أن الحالة خطيرة فعلاً .. بدأت بالكشف
على الصبى الأكبر الذى كان يتلوى من الألم .. حرارته مرتفعة بشدة .. بعد

قليل ألتفت إلى الصبي الآخر .. الصبي الأصغر .. لاحظت أن جسده بارداً و
من الكشف المبدي أدركت أن الأمر قد فات لأسعافه .. نقلت كل جهدى
للطفل الأكبر فى محاولة يائسة لأنقاذه .. ناولته بعض الحقن .. أمرت
الجميع بالخروج ما عدا الممرضة التى كانت تقف بجوارها سيدة متشحة
بالسواد لم ألاحظ وجودها فى البداية .. كنت مشغولاً عندما أقتربت منى ..
لاحظت أنى لا أكشف على الطفل الأصغر .. نظرت إلى جسده البارد ..
أصطدمت بها و أنا أجهز بعض الأدوات فألتفت إليها غاضباً .. أمرتها
بالخروج صارخاً .. تسمرت فى مكانها .. يبدو أنها كانت فى حالة صدمة
فلم تسمعنى .. رغم القناع على وجهها إلا أنى لاحظت أنها تبكى .. أقتربت
منها الممرضة وقادتها للخارج فمضت معها بأستسلام بخطوات ثقيلة ..
عدت لعملى .. الطفل بحاجة لغسيل معدة بالتأكد و بعض الفحوصات .. لا
أدرى تحديداً سبب الحالة .. و لكن تصورى المبدي أنها حالة تسمم حادة

خرجت من غرفة الكشف بعد برهة و أمرت الممرضة بتجهيز بعض
الأدوات .. تقدمت منى السيدة التى تتشخ بالسواد .. لم أجد بداً من
مواجهتها رغم أرهاقى .. رفعت الغطاء عن وجهها .. لم أرى وجهها إلا فى
هذه اللحظة .. تسمرت فى مكانى .. خادمتى .. هى بعينها .. سألتنى
بصوت خائف من العبرات عن حالة أبنيتها .. أذن الطفلين ولديها .. كيف

أخبرها .. الطفل الكبير لم يتجاوز الخطر .. و الآخر لم يكتب له النجاة ..
تأخروا كثيراً فى أسعافهما و نقلهما إلى الوحدة الصحية .. تطلعت من باب
غرفة الكشف المفتوح إلى الطفل الأصغر المسجى جسده على الطاولة أمامى بلا
حياة .. تاهت منى الكلمات .. أول مرة يموت لدى مريض .. و أى مريض ..
هزرت رأسى بأسف .. لم أجد بداً من أخبارها بالحقيقة .. أنهارت أرضاً ..
تقدمت منها فتاة تتشح بالسواد مثلها .. أبنيتها التى لم ألاحظ وجودها من
قبل .. أحتضنتها و أنخرطاً فى نوبة بكاء صامتة .. صرخت أحد السيدات
الموجودات فى العيادة فطلبت منها الصمت حتى أستطيع مواصلة علاج
الطفل .. لعدة ساعات أنشغلت فى علاجه و قياس درجة حرارته .. فى المساء
بدأ يتنفس أخيراً بشكل طبيعى و إن لم يبق بعد من غيبوبة أنتابته ..
خرجت مرهقاً من غرفة الكشف

لم أجد بداً من مواصلة القيام بدورى كطبيب و التوجه نحو الأم لسؤالها
بعض الاسئلة لأعرف الظروف التى أدت إلى هذه الحالة .. أخبرتنى الام
المكلومة بصعوبة أن ولديها كانا بصحة جيدة .. تناولوا طعام الغداء ثم لعبا
قليلاً فى الخارج .. فى المساء بدأت بوارى الحمى تظهر عليهم قبل أن تشتد
فى الصباح .. لوهلة كان يبدو الأمر طبيعياً داخل ذهنى .. و لكن بعد لحظات
بدأت أستعيد كل كلمة قالتها الأم .. كانا طبيعيين قبل تناول الغداء .. هل

يمكن .. غير معقول .. هل أكلا من طعام الأم .. بدأت الصورة تتضح قليلاً ..
الطعام الذى أرسلته معها بالأمس .. كان لدى شك فى الأعراض التى حدثت
للولدين .. أعراض مألوفة لدى بلا شك .. تسمح بالتأكد من مادة غير
معروفة .. حاولت أن أتمالك نفسى .. يكاد ذهنى ينفجر عندما أتخيل
الموقف .. الأم آثرت أبنيها على نفسها وناولتهما الطعام المفترض أنه لها و
الذى عادت به من منزلى .. هذا يفسر كل شئ .. تنحيت جانباً سريعاً و
ذهنى يكاد ينفجر .. أنفردت بنفسى قليلاً فى غرفة الكشف مع الطفل
المريض ، فيما نقلوا جثة الطفل الآخر لمكان مجهول استعداداً لدفنه .. أكاد
أجن .. ماذا فعلت .. المادة التى وضعتها بالتأكد لم تكن لتشكل خطورة على
حياة الام .. ستفقد قوتها لبضعة أيام قبل أن تتعافى تلقائياً بعد فترة .. و
لكن بالنسبة لطفل صغير لم يتجاوز الثالثة .. مناعة الجسم هنا أقل .. و
عواقب تناولها مميتة .. خاصة أنهم تأخروا فى العلاج .. كان يجب إرسال
الطفلين فوراً بمجرد ظهور الأعراض عوضاً عن الانتظار لليوم التالى لطلب
مساعدة متأخرة .. أدركت الآن فقط أنى السبب .. أعترف بهذا .. أنا
المجرم .. ما حدث كان خطأً منى .. بسبب غبائى و تهورى .. أحد الأطفال
مات و الآخر يقف على الخط الفاصل بين الحياة و الموت بسبب نزوة طائشة
من قاتل فى ثياب طبيب مثلى .. هرعت فزعا فأغلقت باب غرفة الكشف و

مكثت داخلها .. لا أعلم كم من الوقت مر على هكذا .. خفت أن أخرج إليهم .. كنت متأكد أن نظرة إلى وجهي .. وبخاصة من الأم .. ستفضحني بالتأكيد و يدركون أني الفاعل .. وربما أنهرت تماماً و سهلت الأمر عليهم و أشرت إلى نفسي لأعلن أني السبب بصوت عالى

قطع على تفكيرى الممرضة و هى تدلف للغرفة .. حاولت أستعادة رباطة جأشى .. طلبت منى كتابة شهادة وفاة للطفل حيث يحتاجها الرجال بالخارج لإنهاء الإجراءات .. يا ربى .. هذا ما لم أفكر فيه .. أقتله و أكتب شهادة وفاته بيدي .. ذلك أكثر مما يمكن لبشر تحمله .. و ماذا أكتب فى خانة سبب الوفاة .. عبث طبيب .. الطبيب العاشق هو السبب .. نبهتني الممرضة بعد أن لاحظت طول صمتي .. أمسكت القلم و يدي ترتعش .. بذلت جهداً لأتمالك نفسي .. صوت العقل بداخلى - أو لعله صوت الشيطان - يناديني .. آخر ما أحتاج إليه الآن هو أن أنهار أمامهم .. ما حدث قد حدث و لن ينفع أعلاني للخطأ .. على أنقاز مستقبلي .. لم يتراجع الموت من قبل أمام ندم قاتل و لن يفعل فيماذا يفيد اعترافى .. كتبت الشهادة و سلمتها للممرضة .. ذكرت فيها أن سبب الوفاة طعام ملوث .. لم أذكر شيئاً عن المادة المسببة للوفاة .. ناولتها الشهادة بيد ترتجف .. ظننت أنفعالي بسبب الأجهاد .. قررت بعدها الاعتكاف فى الغرفة حتى الصباح بحجة البقاء

بجوار الطفل المريض

لا أعلم كيف مر الوقت على .. أحاول أن أوقف تدفق الصور فى ذهنى فلا أستطيع .. نجحت فى إنقاذ الطفل الكبير .. سمعت المديح و عبارات الثناء من الجميع لأنقاذى طفل من براثن الموت و لا أحد يعلم أنى قدمت طفلاً آخر قرباناً له .. حتى الأم المثكولة تماكنت نفسها و جاءت لتشكرنى بنفسها فكدت أذوب أثماً و أنا أفق بين يديها أتلقى مديحها كخناجر تغرس فى قلبى .. لم أطق الحياة فى القرية .. قدمت أستقالتى بعد فترة متحججاً ببعض الظروف العائلية فى المدينة التى تدفعنى للعودة .. هجرت البلدة كلها بعد عدة أسابيع مما حدث .. سعت لبعثة فى الخارج و سافرت .. ظننت أن البعد عن مكان الجريمة سينسينى ما حدث و لكن الشعور بالذنب لا يعترف بحدود أو قيود المكان فلازمنى .. أصطحبني فى أى مكان فررت إليه .. رجعت بعد عدة سنوات و أفتتح عيادتي الخاصة .. أنهمكت فى العمل بلا راحة .. أنقذت حياة الكثير من المرضى و ساعدت فى شفاء أعداد لا تحصى .. ظهرت فى التلفاز عدة مرات و ذاع صيتي .. بنيت مستشفى خيرى و تعددت أعمالى الأنسانية .. و لكن كل هذا كان مجرد مخدر لتسكين آلام الضمير المزمنة .. قطعت علاقتى بالماضى إلا من خيط واحد .. تواصلت مع العمدة سراً لسنوات للأطمئنان على حالته فى الظاهر .. و حالة الأسرة التى

دسست الموت بين أفرادها .. أرسلت له مبالغ مالية عندما تحسنت حالتى و طلبت منه منحهم أياها دون ذكر أسمى و لكنهم رفضوها فالأم لا تقبل أحساناً من أحد كما قال و لهذا كانت تخرج و أبنيتها للعمل .. أنقطعت صلتى به بعد فترة .. أحياناً أنصب محاكمة لنفسى .. أقاضيهها بقسوة .. أنا الشاهد على نفسى و الجلال و القاضى .. أصدر حكمى عليها من أول جلسة .. لا مذنب سوى .. و أحياناً أدافع عن نفسى .. تأخيرهم فى علاج الحالة كان سبباً مباشراً فى تدهورها و عدم القدرة على علاجها .. ما زال صراع البراءة و الذنب يشتعل بداخلى .. أكتب قصتى على الورق و أتمنى لو كان ينطق فيحكم على حالتى .. بحكم عملى كطبيب أعلم أن ألم الجروح يزول بعد فترة و لم أدرك أن جروح الضمير لا يزيدها الزمن إلا أيلاماً .. ما زالت صور الطفل المفارق للحياة تحل ضيفاً ثقيلاً على ذاكرتى بلا موعد و تأبى أن تفارقنى .. كمريض بالصرع لا يرجى شفاؤه ، تنتابنى من وقتها كثير من نوبات الذنب و الندم بشكل مفاجئ فتعصف بكيانى .. ما يقلقنى أنى تزوجت متأخراً و أنجبت طفلان .. أدخل غرفة نومهما كل مساء بعد عودتى من العمل لأطمئن عليهما .. لا أتصور أن أفقد أحد منهما .. أتخيل أحياناً أنى لم أعاقب على فعلتى و ربما يأتينى العقاب فى طفلاى .. أكاد أجن عندما تراودنى تلك الأفكار .. ليس هناك أسوأ من أن تقضى حياتك فى حالة أنتظار منمنة لعقاب

عادل قد يأتى فى أى لحظة .. لا أعرف لحالى علاجاً مؤقتاً سوى الكى بالألم .. أعيش مطارداً بالندم .. و الندم ذئب جشع لا يرحم لا تزيده مرور السنوات إلا خبرة فى أحكام خناقه على فريسته .. لم أنجح طوال تلك السنوات فى التكفير عن أئمتى و لكنى نجحت بجدارة فى أن أتعذب به .. أتعذب بذنب أحاول عبثاً التعايش معه منذ ثلاثة و عشرون عاماً بلا أمل

صورة

زرنا صديقنا فتحى فى مكتبه لتهنئته بمنصبه الجديد .. لم يتغير مكتبه القديم رغم الترقية .. رحب بنا بحرارة و قضينا بضع دقائق نتبادل الحديث فى عدة موضوعات مختلفة قبل أن يتناهى إلى سمعى صوت طرقات على الباب .. يبدو أن صاحبى لم ينتبه له لأنه واصل الكلام .. بعدها بثوان عاد الطرق مرة أخرى .. لأول مرة أدرك أن صديقى ثقيل السمع .. ألتفت إليه لألفت نظره أن هناك أحد بالباب ربما يستأذن فى الدخول .. لوح بذراعيه بلا مبالاة و لم يعلق .. ولكن عندما قطع حديثنا للمرة الثالثة صوت تلك الطرقات الخفيفة نهضت و فتحت الباب لأتفاجئ بعدم وجود أحد .. الردهة الطويلة أمام المكتب خالية تماماً .. أخرج صديقى علبة سجائرة و أشعل واحدة بهدوء ثم أسترخى فى مقعده .. سألته بتعجب و أنا أشير إلى الطريقة الخالية:

-أين ذهب الطارق ؟

أجابنى بلا أكثرات : دعك منه .. ربما فتحى الفراش .. تلك طرقتة

المميزة

لم يفوت صديقنا الفرصة .. سأله مازحاً : وهل أعتاد أن يطرق الباب ثم يهرب كالأطفال ؟

-ربما أصابه الملل فأنصرف .. أو ربما غضب قليلاً لأنى أتجاهله كالعادة .. لا تقلق سيعود لاحقاً .. ولن أفتح له
سألته بتعجب : إذن تتجاهله عمداً .. لماذا .. ؟

قال دون اهتمام : لهذه قصة طويلة
أثارت كلماته فضولى ، قلت مازحاً : يبدو أن بالموضوع سرّاً ما تحاول
جاهداً أن تخفيه

ضحك صديقى قائلاً : لا يوجد أسرار .. ولكنى لا أريد تضییع وقتكما
سدى فى قصة لا تستحق

أجبتة و أنا أعاود الجلوس على مقعدى : طالما ليس بالموضوع سرّاً فأحكى
إذن .. على الأقل نعرف لما طرق الباب و هرب

سكت قليلاً ، ثم قال بأستسلام بعد برهه : حسناً .. ولكنى حذرتكما
أنها حكاية مملة لا تستحق

أطفئ سيجارته ثم قال:

عم فتحي أقدم عامل هنا .. أستلم عمله من أول يوم أنشأنا فيه المجلة ..
الجندي المجهول هنا كما يقولون .. نشيط دائماً لا يركن للراحة و لا يستقر
في مكان .. لم يكن فراشاً فقط .. بل أيضاً عامل النظافة و حارس الأمن و
سكرتير أحياناً .. مجلتنا في بداية عهدها لم تكن مشهورة و ميزانياتها
محدودة للغاية و لهذا قام بكل تلك الوظائف راضياً .. اعتاد أن يأتي في
الصباح مبكراً قبل أى أحد .. ينظف المكاتب ثم يتوجه إلى المطبخ .. بمجرد أن
يضع الماء ليغلي حتى يتوافد المحررين .. يعد المشروبات طوال اليوم ..
يستقبل أحياناً الزوار و يدلهم على المكاتب .. يصلح أى شئ مكسور .. و يرد
على التليفونات عندما تكون السكرتيرة الوحيدة لدينا مشغولة أو متأخرة
كعادتها .. هو أول من وقعت عيناي عليه عندما جئت إلى هنا .. مجرد
محرر مبتدئ وقتها .. كنا نحسده على ذاكرته القوية .. لا ينسى شيئاً ..
يحفظ عادات كل شخص .. في الثامنة صباحاً يحضر لى قهوتي المعتادة ..
وبعدها بساعتان تماماً يحضر كوب القهوة الثاني دون أن أطلب منه بعد أن
عرف عاداتي .. مواعيده دقيقة تستطيع أن تضبط ساعتك عليها .. بمرور
الوقت بدأت المجلة تنتشر تدريجياً و يزداد عدد المحررين فأكتفى بعمل
الفراش بعد أن أحضرنا عاملة نظافة تساعد بعد الظهر
أتذكر أول مرة خرجت فيها المجلة للنور .. أعطيته نسخة من أول عدد

نصدرة فظل يحتفظ بها بحرص داخل درج خاص فى المطبخ .. و رغم أنه لا يقرأ لكنه ظل يتطلع للصور بشغف .. يخرج المجلة فى أوقات فراغه و يقلب فى صفحاتها بحثاً عن الصور و يطالعها بتركيز و يسرح مع أفكاره .. بدأ يطلب نسخة من كل عدد نصدرة ليطلع الصور .. لا أعلم ما سر هوايته الغريبة تلك و لكنه كان شغوفاً بها بشدة .. بعد ثلاث سنوات من عملى هنا ترقيت و أصبحت كبير المحررين .. زادت أواصر الصداقة بينى و بين عم فتحى خاصة أنه كان يسهر معى أحياناً لأنجاز أعمالى المتأخرة .. و عندما أصاب أحياناً بالأرهاق من العمل .. يجلس ليسلبنى و يحكى لى قصص من حياته

ذات صباح أتذكره جيداً .. جاء يطرق على الباب كعادته .. كنت مشغولاً بكتابة مقال فلم أرفع عينى عن الأوراق .. ظل مترشاً أمامى دون أن يصدر عنه أى صوت حتى أنهتتهيت .. عندما رفعت عينى أبتسم بتردد .. ألقيت نظارتى و فركت عينى و أنا أسأله بهدوء عن سبب أنتظاره بهذا الشكل .. سكنت قليلاً ثم أجابنى بخجل أنه يريدنى فى طلب شخصى .. توقعت أنه يرغب فى اقتراض بعض المال رغم أنه لم يفعلها من قبل .. أبتسمت لأشجعه على الكلام .. أطرق إلى الأرض .. تهدج صوته قليلاً و هو يردد :

-أريد منك معروفاً لن أنساه طوال عمرى

سكت قليلاً .. بلع ريقه بصعوبة .. تلعثم وهو يكمل بأبتسامة
مرتبكة : أريدك أن تنشر صورتى فى الجريدة
تمالكت نفسى بصعوبة حتى لا أضحك .. لو رأيت تلك النظرة الطفولية
على وجهه وقتها لضحكت .. ملامحه فى منتهى البراءة والجد فى آن
واحد .. سألته برفق:

-لماذا تريد أن تنشر صورتك ؟

أجاب بعدة أجابات كلها تدل على السذاجة .. أخبرنى أنه يحب الصور
و يحلم أن يرى و لو صورة صغيرة له فى المجلة حتى يريها لأصدقائه ، و
يحتفظ بها بعد أن يتباهى بها أمامهم .. لم أشأ أن أضدمه بصعوبة الأمر ..
الطريقة الوحيدة لأنشر صورة له هو بعد عمر طويل فى صفحة
الوفيات .. رأيتـه ينظر نحوى و هو يتطلع بلهفة لردى .. تملمت فى
مقعدى .. فكرت فعلاً بجدية فى أمره .. رغم سهولة طلبه و لكن صعب أن
أنشر له صورة فى أى قسم من أقسام الجريدة .. الصفحات الأولى مخصصة
بالطبع للأحداث السياسية البعيد هو عنها تماماً و لا يرغب بالاقتراب
منها .. صفحات المجتمع لا تهتم سوى بأخبار الفنانين و المشاهير ..
أستبعدت صفحة الرياضة بالطبع فالرياضة الوحيدة التى يجيدها هى ركوب
دراجته البسيطة للعمل صباحاً .. ربما فى قسم الحوادث .. و لكنه لم يرتكب

أى جريمة تستحق سوى أنه دخن مرة واحدة فقط فى شبابه كما حكى لى تحت ضغط زملائه و ألق بعدها .. لم أجد حلاً و أشفقت أن أرفض طلبه بشكل مباشر فأؤذى مشاعره .. وعدته أن أفكر فى الموضوع .. تهلل وجهه بسعادة و أنصرف و هو يكاد يطير فرحاً

و بالطبع صدر العدد التالى من المجلة و لم تظهر صورته فيه .. جاءنى منكسراً .. أشفقت عليه .. لم أجد عذراً يمكن أن يقبله برضا دون أن أخيب أمله .. اضطرت أن أصارحه برفق و أوضح له صعوبة الموقف .. أخبرته بوضوح أنه لا بد من وجود سبب مقنع لنشر الصورة .. كأن يكون مشهوراً مثلاً .. أو صاحب قضية تهم الرأى العام .. أو حتى صاحب تجارب حياتية مميزة أستطيع نشرها ليستفيد منها القارئ .. عندما أنتهيت من كلامى معه سكنت فتحى قليلاً .. فكر لثوان ثم أبتسم و هتف بتلقائية:

-أنشر قصة حياتى أذن

هذه المرة لم أتمالك نفسى فضحكت .. و يبدو أنه فسر ذلك على أنه استحسان لفكرته .. فبدأ يتكلم عن أحداث من حياته الجوفاء و يستفيض فى رواية ما مر به .. أدركت وقتها أنه لا فائدة من محاولة أقناعه .. جلست على المقعد بأستسلام و أسندت رأسى على يدي أستمتع بصبر لحكايته التى يرويها لى للمرة العاشرة

أنتابتنى فكرة وقتها .. لما لا أكتب قصة قصيرة أستلهم أحداثها من واقع حياته وأنشرها فى قسم الأدب .. على الأقل سيفرح بنشر قصة تحكى عنه و لن يعاود التفكير فى موضوع الصورة .. بدأت أنتبه أكثر معه و هو يحكى .. و لكن لخيبة أملى لم أجد أى شئ مميز يمكننى التوقف عنده .. حياة جوفاء .. مثال حى لحياة روتينية .. أرض مسطحة لا أنحناءات فيها و لا ارتفاعات .. أبوه كان ساعى بريد بسيط و توفيت أمه و هو صغير .. لم يتعلم القراءة أو الكتابة .. عمل صبى بائع لفترة طويلة قبل أن يغلق المحل الذى يعمل فيه لوفاة صاحبه فأنتقل للعمل كنادل فى مقهى شعبى .. لم يعجبه العمل فتركه و تنقل فى عدة وظائف بسيطة قبل أن يستقر به المقام للعمل فى جريدتنا .. يقضى طوال فترة الصباح هنا و ينهى عمله مساءً فيتوجه إلى المقهى ليقضى بعض الوقت مع شلة من جيرانه ثم يعود لمنزله المتواضع و ينام للصباح .. يسهر فقط قليلاً يوم الخميس على المقهى .. و أحياناً يزور قريبة له مسنه تسكن فى مدينة أخرى .. تلك هى حياته تقريباً بدون اختصار .. حياة تسير على قضبان ثابتة كقضبان السكة الحديد .. لم ينحرف يوماً أو يحيد عن الطريق .. يقطع نفس المحطات يومياً .. و ينتهى دائماً عند النقطة التى بدأ منها .. كيف يمكننى أن أضع حياة كتلك فى قصة أدبية مشوقة تثير القارئ .. قصته خالية من أى أحداث مثيرة و محبطة لأى كاتب يود

صياغتها

قاطعت لصديقي : و لكن فى داخل كل منا قصة تستحق النشر .. هذا ما يردده الأدباء..

هز صديقى رأسه ثم قال : كلام نظرى لا ينطبق على الكثير و منهم عم فتحى .. ماذا أكتب عنه .. يستيقظ صباحاً و يقضى اليوم فى العمل ثم يذهب لمنزله للنوم .. حتى أحلامه لم يكن له أحلام أو طموحات كبيرة .. إلا حلمه بالطبع بنشر صورته .. لم يحلم أن يتزوج أو يكون له أولاد لضيق ذات اليد .. و طموحه لا يتعدى أن يحافظ على عمله كفراش .. ليس له مغامرات .. أو حتى مشاريع خاصة يود تنفيذها .. من سيستمع بقراءة الأحداث كذلك..

على العموم وعدته بأعادة النظر فى الموضوع .. قررت أن أتركه عدة أيام لعله ينسى الأمر و لكن مع مرور الأيام زاد هوسه .. عندما نشرنا العدد التالى و لم يجد صورته جاء ليعاتبنى .. لمحت نظرة أنكسار فى عينيه .. لم أره محبطاً من قبل بهذا الشكل .. و بعد صدور عدد آخر دخل المكتب يحمل القهوة بيد و بيده الأخرى يطبق على نسخة من المجلة .. بسط المجلة أمامى وأشار إلى صورتان لأثنان يبدو من هينتهما أنهما بسطاء .. سألنى بعتاب لماذا لم أنشر صورته مثلهما فلا يبدو عليهما أنهما من المشاهير أو نجوم المجتمع .. تصفحت المجلة بهدوء .. الصورة الأولى لشخص مريض نشرنا

ألتماس لوزير الصحة لعلاجيه فى الخارج و معها صورته .. و الثانى تعرض للنصب فنشرنا قصته حتى نحذر الناس و بالطبع نشرنا صور المراقبة معه بعد أن تطوع بذلك .. حاولت أن اوضح له الأمر و لكن لم يبدو عليه الاقتناع .. لو كان يجيد القراءة لطلبت منه أن يقرأ المجلة ليتأكد من كلامى بدلاً من أن ينصرف و نظرة الشك تلك تظهر فى عينيه بوضوح .. و رغم مرور الأيام و تجاهلى له لم يفقد الأمل .. و عرفت لاحقاً أنه حاول مع عدد من الصحفيين هنا .. و لكنه قوبل بالاستهزاء منهم

مرت سنوات على مجلتنا .. تعرضنا للأغلاق و المصادرة عدة مرات .. و غادر عدد كبير من المحررين و حل محلهم عدد أكبر .. أنتشرنا و توسعنا .. جددنا ديكورات المكتب و غيرنا الأثاث .. أصدرنا المجلة فى البداية شهرياً ثم أسبوعياً .. كل شئ تغير إلا ألحاح عم فتحى .. لم ييأس و ظل يذكرنى بطلبه على فترات متباعدة .. أنتظر دوماً بأمل أن أحقق رجاءه رغم تجاهلى الدائم له الذى أستمر لسنوات .. حتى تفاجئنا ذات صباح بغيابه

لأول مرة من اثنتى عشر عاماً لا يحضر .. لم يغيب يوماً من قبل .. اعتاد يومياً أن يكون أول من يصل لمقر المجلة و آخر من يغادر حتى أصبح جزءاً من المكان لا تألفه أعيننا بدونه .. و عندما تواصل غيابه لليوم الثانى أرسلنا مندوباً من المجلة للسؤال عنه .. عرفنا أنه مريض فجأة .. أصيب بالتهاب

رئوى حاد و نقلوه للمستشفى .. لم يكن عم فتحي بالشخص قوى البنيان و لكنه لم يمرض قط .. و كأن الطبيعة أرادت أن تعوضه عن ضعف بنيانه بمناعة قوية ضد المرض .. و لكن مناعته أنهارت فجأة .. زاره بعض المحررين فى المستشفى و كنت أنوى مشاركتهم الزيارة و لكنى اضطرت للسفر لتغطية مؤتمر هام .. أحد الزملاء اتصل بى و أبلغنى أنه سأل عنى و كان يرغب فى رؤيتى فصممت على زيارته بعد أنتهاء المؤتمر .. و لكنه مات بعد عدة أيام .. لم يكن له أقارب هنا فتولت الجريدة كل شئ و دفن فى أحد مقابر الفقراء .. و لأن المصائب لا تأتى فرادى .. صودرت جريدتنا بعد أن نشرنا تحقيقاً فى قضية هامة رغم قرار النائب العام وقتها بحظر النشر فى تلك القضية .. و عندما عاودنا النشر .. كان الوقت قد فات لنشر نعيًا له .. مرت سنة الآن منذ وفاته و ترقيت حتى أصبحت رئيس التحرير .. و جننا بساعى جديد ليحل مكان عم فتحي .. هذه هى حكايته كلها .. كما ترون .. لا أستحق أن أكتب قصة عنها أو تحقيقاً و أنشرها

سكت قليلاً .. سألته بدهشة : و لماذا ظننت إن أنه هو الطارق ؟

أرتشف قليلاً من كوب القهوة أمامه .. قال كمن يتذكر شيئاً :

نسيت أن أقول لكم .. بعد عدة أيام من وفاة عم فتحي وقعت بضع حوادث غريبة فى المجلة .. أناس تسمع صوت جلبة فى المطبخ رغم أن لا أحد

هناك .. أيضاً الفراش الجديد الذى عمل هنا أخبرنا أنه يلاحظ أصوات قادمة من المكاتب عندما يأتى فى الصباح .. و كأن شخصاً ينظفها .. و عندما يتحقق من الأمر يجد المكاتب خالية .. و بواب العمارة يؤكد أنه يرى أحياناً الأنوار مضاءة لفترات متأخرة فى المساء حيث أعتاد عم فتحى السهر مع بعض المحررين الذين يمكنون لأنجاز أعمالهم المتأخرة رغم أنه لم يعد أحد يفعل ذلك الآن .. و بدأت أسمع صوت طرق على الباب فى نفس الأوقات المنتظمة التى كان يقدم عم فتحى فيها قهوتى المعتادة .. نفس طرقته المميزة على الباب .. كتلك التى سمعتموها .. و عندما أفتح الباب لا أجد أثر لأحد .. و بعض المحررين أيضاً حدث معهم نفس الشئ .. و بالذات القدامى منهم .. و أستمرت هذه الطرقات من يومها حتى الآن .. الغريب أن عم فتحى كان يحتفظ ببضع أعداد من المجلة فى درج خاص داخل المطبخ .. أعداد خاصة ممتلئة بالصور أكثر و منها العدد الأول للجريدة .. و لكنها أختفت كلها رغم أن الفراش الجديد رآها هناك أول يوم أستلم فيه العمل هنا .. و لكنها أختفت بعدها .. كما أن بعض الصور المعلقة على الجدران تحطمت أطارتها .. فلم نعد نعلق أى صور على جدران المكان

توقف صديقى عن الكلام لبرهة .. خيم علينا الصمت .. نظر فى ساعته قائلاً بسرعة : يبدو أن الوقت تأخر .. سأدعوكما للغذاء بمناسبة الترقية ..

نهض فخرجنا من مكتبه دون كلام .. كنت فى حالة صدمة مما سمعت .. سرنا فى الردهة الخالية تماماً .. يبدو أن معظم المحررين فى استراحة غداء أو أنهوا عملهم بالفعل فالمكان شبه خالى .. أقتربنا من المطبخ .. تسمرت فى مكانى عندما تناهى إلى سمعى صوت قادم من داخله .. نظرت لصديقى ولكنه أكمل طريقه بشكل طبيعى فسرت معه .. مع اقترابنا ازداد الصوت وضوحاً .. صوت مياه تغلى و كأن شخصاً يعد مشروباً و معها صوت تقليب صفحات .. أشار صديقى إلى كرسى بجوار المطبخ تماماً:

-هنا اعتاد أن يجلس عم فتحى ينتظر إشارة أحد من الموظفين .. و هنا المخزن..

ظل صديقى يتكلم و نحن نعبر أمام المطبخ .. لم أنتبه لأى من كلامه لأنى كنت مشغولاً بمعرفة ما يدور داخل المطبخ .. بمجرد أن أصبحنا أمامه حتى ألتفتت ببطء لألقى نظرة سريعة بداخله .. لم يكن هناك أحد .. المكان خاوى تماماً و الصوت توقف بمجردنا أن عبرنا أمامه .. أقشعر بدنى .. بمجرد أن تجاوزنا مدخل المطبخ حتى عاد الصوت مرة أخرى بوضوح .. سيطرت على نفسى بصعوبة .. سرت قشعريرة باردة فى جسدى رغماً عنى .. سرحت قليلاً قبل أن أنتبه على صوت صديقى مكماً كلامه:

كلما تذكرت عم فتحى شعرت بالشفقة نحوه .. حاولت أن أكتب عنه عدة

مرات و لكنى حتى الآن لم أجد أى شئ مميز فى حياته ..
ثم تنهد و هو يلوح بيديه بىأس قائلاً : ليتنى أجد أى شئ مثير فى قصة
حياته لأكتب عنه على الفور

بهجت

فى بداية الثمانينيات لم يكن هناك فى مدينتنا محل أشهر من محل بهجت .. ربما بسبب موقعه الممتاز فى قلب المدينة التجارى أو بسبب ضخامة مساحته .. أعتدت أن أمر عليه عدة مرات فى اليوم الواحد أثناء زهابى أو عودتى من المدرسة .. أطلع بأعجاب إلى فاترينته المليئة بكل أشكال الحلوى .. لم أدخل المحل يوماً و لم أرى كثير من الزبائن يتوافدون عليه .. ولكنه يظل واحد من معالم مدينتنا الصغيرة حتى أن المنطقة المحيطة به أصبحت معروفة لدى الناس بأسم المحل .. عندما تمر أحد عربات النقل العام أمام المكان يكفى أن يشير أحد الركاب بأسم " بهجت " ليتوقف السائق هناك .. وعلى الرغم من أن المنطقة مليئة بمحلات أخرى من كل صنف و نوع .. و لكننا لم نعرف للمنطقة هناك أسماً آخر غير

لم أرى أحد يعمل داخل المحل سوى صاحبه بهجت .. و لبهجت شخصية أكثر شهرة من محله نفسه .. رجل متوسط العمر طويل القامة ذو شعر خفيف بدأ يغزوه اللون الأبيض و عينان يشع منهما بريق ذكاء فطرى ..

ورث أرض كبيرة عن أبيه فى مكان مميز فى قلب المدينة التجارى بالإضافة إلى مزرعة صغيرة .. سافر للعمل فى دولة عربية و عاد بعد عدة سنوات فبنى عمارة أنيقة على الأرض كانت مثار أعجاب الناس وقتها .. لم يكن يحب قيود الوظيفة أو يحتاج إليها .. قرر أن يبدأ مشروعاً فأفتتح محل ضخم للحلويات أسفل منزله و أطلق عليه أسمه .. فى الواقع لم يكن بهجت يهتم بالربح عندما أفتتح مشروعه .. أيراد المزرعة بالإضافة إلى أيراد عمارته الجديدة و ثلاث محلات أخرى صغيرة أسفلها وفر له دخلاً محترماً لم يعد معه بحاجة إلى حسابات الربح و الخسارة .. ولكنه أفتتح المحل ليشغل وقته و عوضاً عن المكوث فى المنزل .. كان أول محل للحلويات الغربية فى مدينتنا التى لم تعتاد سوى الحلويات الشرقية المصنوعة محلياً .. ورغم نصائح أصدقائه و أقاربه بسداجة إقامة محل كهذا فى مدينتنا ذات الطابع الريفى .. إلا أنه أصر على أستكمال المشروع قائلاً لهم ببساطة أنه لا يريد سوى أن يكون مختلفاً عن غيره ، و لا يسعى سوى لكل ما هو جديد و متميز .. و أفتتح بهجت مشروعه الجديد بالفعل وسط احتفال و أحتفاء بسيط فى البداية لم يحقق بهجت نجاحاً يذكر تماماً كما توقع له الكثيرون .. و لكن مع مرور الوقت بدأ المحل يجذب الزبائن .. أناس دفعهم الفضول لتجريب منتج جديد بعيد عن الحلوى التقليدية .. صبر بهجت طويلاً على حلمه .. تطلع برضا إلى عدد الزبائن الذى يزداد يوماً عن يوم و إن كان ما زال

يسير بشكل بطيء .. مرت أسابيع و أشهر .. بعد ثلاث سنوات كاملة بدأ المحل يحقق ربحاً معقولاً بعد أن كان بالكاد يكفى مصاريفه .. كل من كان يلوم بهجت على فكرته الغريبة بدأ يشيد بذكائه و يتحدث عن بعد نظره .. و لكن ما كاد بهجت يلتقط أنفاسه و يحقق ربحاً حتى تفاجئ بأفتتاح محل منافس .. بمجرد أن أنتشرت الحلوى الغربية بين الناس حتى قلده أحد كبار تجار المدينة .. أفتتح محلاً آخر فى مكان مميز و بأسعار أقل .. ثم تبعه تاجر آخر بعده بعام فى مدينة صغيرة لا تتحمل كل هذه المنافسة

أبرز ما فى مدينتنا الصغيرة أن الناس هنا تهوى تقليد كل ناجح .. تخشى من المغامرة و تهرب من الأفكار الجديدة و لكن بمجرد أن يغامر أحد و ينجح حتى يسعى الجميع لتقليده بلا قيود .. و هذا ما عانى منه بهجت

لم يكد يحصد نجاح تجربته التى صابر عليها طويلاً حتى أرهقته المنافسة الشرسة .. لعدة سنوات أخرى ظل بهجت كما هو يتجاهل الوضع الذى يزداد سوءاً .. حتى أبى الذى اعتاد أن يبتاع من عنده بعض الحلوى فى المناسبات توقف بعد أن اكتشف أن هناك محلات أخرى تبيع نفس البضاعة بسعر أقل .. علمت لاحقاً أن بهجت بدأ يخسر من ولديه الذى كان أحدهما صديقاً لى فى المدرسة بينما الآخر يصغرنا بعامين

فى آخر سنوات دراستى الابتدائية مررت على المحل يوماً لأتفاجئ به

مغلق .. لأول مرة منذ ست سنوات يوصد أبوابه .. بعدها بيومان رأيت بعض العمال يجهزون المحل .. سألت صديقى فأخبرنى أن والده قرر تجديد المحل .. مر شهر و نصف قبل أن يعاد افتتاح المحل ليتحول إلى مجمع استهلاكى ضخم .. لم يكن تجديداً كما توقعنا .. بهجت غير نشاطه بالكامل تحول محل الحلويات بالكامل ليصبح مجمع استهلاكى ضخم .. كنا فى منتصف الثمانينيات و اعتاد الناس هنا الشراء من الدكاكين الصغيرة .. لأول مرة فى مدينتنا نرى كل تلك البضائع تجتمع تحت سقف واحد .. التجول داخل المحل أصبح متعة فى حد ذاته فهنا تجد كل شئ .. وضح أن بهجت صرف على محله كثيراً لتجديده بل و اضطر إلى توسيعه بعد أن أضاف إليه أحد المحلات الثلاثة الصغيرة بجواره و التى كان يقوم بتأجيرها .. كسب بهجت الرهان و أثبت عبقريته مرة ثانية فى اختيار مشاريعه .. عندما كنت أجدى إلى هنا مع أبى لم أكن أرى بهجت إلا و هو يتنقل من مكان لآخر يشرف على كل شئ بنفسه و أبتسامته ثقة تعلو وجهه .. مرت شهور و بهجت يحصد نجاح مشروعه .. بعدها عرفنا بالمصادفة أن تاجر كبير أفتتح مجمع استهلاكى جديد فى طرف المدينة .. تبعه ثالث و رابع داخل المدينة!

لم يمر وقت طويل بعد نجاح مشروع بهجت الثانى حتى تم تقليده فكان لدينا أربع مجمعات استهلاكية ضخمة تزحف على مدينتنا التى لا تستوعب

كل هذا العدد و كل ذلك خلال سنوات قليلة فقط .. سحبت المجمعات الجديدة البساط قليلاً من تحت أرجل بهجت خاصة أن أصحابها من التجار الذين يعرفون جيداً كيفية الحصول على البضائع بأرخص الأسعار بينما بهجت برغم أفكاره العظيمة لم يكن بتاجر .. بدأ توافد الزبائن عليه يقل تدريجياً و بدأ يقلل من عماله .. مشروعه الثانى صمد لمدة ست سنوات كاملة أيضاً قبل أن يحقق خسائر دفعت بهجت للتفكير فى نشاط آخر مختلف

و عاد العمال مرة أخرى .. و بدأت أعمال الأحلال و التجديد التى طالبت هذه المرة لشهران .. قبل أن يخرج المحل بشكل جديد تماماً لم تعتاده مدينتنا المحافظة .. محل فيديو جيم للأطفال

كنا فى بداية التسعينيات يوم ولادة المحل الجديد الذى لاقى أقبالاً شديداً منا حتى أنه فى أوقات الاعياد و المناسبات كان علينا أن نذهب مبكراً و نحجز قبلها بساعات لنضمن الحصول على فرصة للعب .. أمتلأ المحل بأحدث شاشات الفيديو جيم و لم نعد نسمع هنا سوى صوت طلقات الرصاص أو فرملة السيارات أو تقارع الأسلحة فى الألعاب الوهمية المختلفة .. بالطبع هاجمه الكثيرون بداعى أنه يفسد أخلاق الأطفال و لكننا كنا نستمتع جداً بوقتنا هنا .. بهجت نفسه كان يغلق محله فى الفترة الصباحية بعد أن حرص عدد كبير من الطلاب على الهروب من مدارسهم و قضاء الوقت فى

محله .. واطبت على المجئ هنا بشكل دورى فى نهاية كل أسبوع مع أصدقائى بعد أن أعتدت أذخار مصروفى لثلاثة أيام كاملة قبلها حتى أتمكن من اللعب .. كان ذلك قبل أن يفتح محل مشابه قريب من المنطقة التى نسكن فيها ففضلنا الذهاب إليه .. هذه المرة و مع بدء انطلاقنا فى عصر السرعة لم يستغرق الأمر وقتاً طويلاً لسرقة فكرة مشروع بهجت الجديد .. بعد سنتان أنتشرت محلات الفيديو جيم الصغيرة فى المدينة الضئيلة و لم يلبث بهجت أن قرر إغلاق محله كالعادة

انتظرت - و معى الكثير من الفضوليين و التجار - مشروع بهجت الجديد .. فكرته القادمة بعد أن أثبت فى كل مرة قدرته على قراءة السوق و الخروج بأفكار مبتكرة غير تقليدية .. لم يحتاج المحل هذه المرة لتغيير كبير .. بقيت ديكورات المحل كما هى و لم تتغير سوى اللافتة لتعلن عن ميلاد مكتب بهجت للكتابة و الطباعة بالكمبيوتر .. كنا قد أقتربنا من منتصف التسعينيات و ما زالت آلات الطباعة التقليدية منتشرة فى المدينة العتيقة .. أجتذب المكتب العديد من طلاب الجامعات بالإضافة إلى أصحاب الأعمال و الباحثين .. المكتب الوحيد الذى تجتمع فيه كل الخدمات الحديثة فى مكان واحد .. فاكس و كمبيوتر و آلات طباعة حديثة و هاتف دولى أيضاً .. بإمكان أى عميل أن يكتب و يطبع هنا أى أوراق يريدتها بسرعة ..

وظف بهجت عدداً من السكرتيرات أمتزن بالكتابة بسرعة على الكمبيوتر ..
بالأضافة إلى إنشاء قسم خاص داخل المكتب للدعاية و الإعلان بأحدث
الوسائل .. أشترى أحدث ماكينات نسخ الأوراق و أفضل آلات الطباعة .. فى
الانتخابات التى أقيمت بعدها بسنة كانت معظم اللافتات و أوراق الدعاية
المبهرة التى أغرقت المدينة ممهورة بأسم مكتبه .. لفترة لم يستطع أحد تقليد
مشروع بهجت خاصة من التجار الكبار الذين كان فهمهم للتكنولوجيا
الحديثة محدوداً إلى أبعد حد .. ظننا أن هذا سيكون آخر مشاريع بهجت و
يبدو أنه هو نفسه أطمئن لنفس خاطر فصرف على مكتبه بسخاء .. إلا أن
أحد شباب الجامعة المتحمس أعجب بالفكرة .. أتفق مع بعض أصدقائه فقاموا
بتأجير مكتبة كبيرة أمام الجامعة مباشرة و أشترى عدداً من أجهزة
الكمبيوتر و عدداً من الطابعات بالتقسيط و بدءوا بالعمل .. خبرتهم فى
التعامل مع التكنولوجيا الحديثة فاقت خبرة بهجت بالتأكيد و لم يلبث أن
ازدهر عملهم .. بالطبع أجتذب المحل الجديد طلاب الجامعة الذين فضلوه
فى النهاية نظراً لقربه من الجامعة ، و بعد المسافة بين وسط البلد حيث
محل بهجت و بين كلياتهم .. ثم انتقلت الفكرة لشاب آخر فأفتتح مكتبة
أخرى .. كان يمكن لبهجت أن يصمد أمام المنافسة التى ما زالت فى بدايتها و
لكنه فضل أن يستسلم بشكل سريع و غير متوقع و أغلق محله بعد أن باع

الأجهزة كلها

تجاوزنا منتصف التسعينيات و اقتربنا من نهاية الألفية .. ألتحقت بالجامعة و بهجت يجدد محله للمرة الخامسة .. هذه المرة لاحظنا أن الفاتريانات رجعت لتحتل واجهة المحل .. أيقن الناس أن بهجت سيعود لبيع الحلوى .. نشاطه الأول .. و لكنه فاجئ الناس بعمل أفتتاح ضخم ليعلن إقامة أول محل للهواتف المتحركة .. أتهمه البعض بالجنون و البعض كان رحيماً معه فأكتفى بأتهامه بالسذاجة .. عدد من يحملون الهواتف المتحركة فى بلدنا لم يكن يتعدى أصابع اليدين .. سمعنا كثيراً عن تلك الأجهزة دون أن نراها أو نحلم بامتلاكها .. فى مدينتنا المكدمة من يقدر على شراء هذا الجهاز باهظ الثمن أو تحمل قيمة مكالماته .. نصف الناس هنا لا يحملون سوى بامتلاك هاتف أراضى و ربما أنتظروا لشهور وقتها فى سبيل تحقيق ذلك .. تحمل بهجت لمدة عامين تقريع الناس و الجلوس داخل محله الخاوى تقريباً من الزبائن إلا من قلة معدودة .. تحمل أن يجلس أحياناً يوماً كاملاً دون أن يطالعه وجه زبون حتى بدأت التكنولوجيا الجديدة تغزو العقول قبل السوق .. أنتشر الموبايل تدريجياً فى أيدي الناس بعد عدة عروض من الشركات المتنافسة لتخفيض سعره و أصبح للمحل زبائن .. المحل الوحيد الذى تباع فيه الأجهزة و كروت الشحن و كافة مستلزمات الاختراع

العجيب .. بل و حتى عمل صيانة بعد أن تعلم بهجت كيفية صيانة هذا الجهاز مستغلاً فترة فراغ محله من الزبائن .. و لفترة ليست بالقصيرة حقق بهجت أرباحاً لم يحققها أى مشروع له من قبل ، و ظل محتكراً للسوق الجديدة لفترة لا بأس بها قبل أن يقبل على المجال بعض الشباب المغامر و بعض التجار الكبار الذين أستطاعوا بذكاء الحصول على توكيلات رسمية من شركات المحمول .. أنتشرت المحلات الصغيرة و الكبيرة بعدها كالوباء فى كل أرجاء المدينة و قل عدد زبائنه .. و قبل أن يبدأ بالخسارة قام بهجت بتصفية محله مجدداً

فى بدايات القرن الجديد و مع أولى سنوات الألفية تخرجت من الجامعة و أستلمت أول عمل لى و تحول نشاط بهجت من الهواتف المتحركة إلى بيع و شراء أجهزة الكمبيوتر .. لم أكن أحلم بامتلاك جهاز كمبيوتر وقتها نظراً لثمنه الغالى و لكن بعد تخرجى بثلاث سنوات أصبح الجهاز فى كل بيت .. تجمع لدى مبلغ من المال فقررت شراء جهاز و كنت قد عزمتم على الشراء من بهجت .. و لكن أصدقائى دلونى على محل أفتتح بعده يبيع الأجهزة بسعر أرخص فأشترت منه

سافرت للعاصمة للعمل و لم أكن أعود إلا فى أجازات قصيرة و لكنها كانت كافية لأتابع محل بهجت يتحول إلى مقهى أنترنت ثم إلى صيدلية

أعشاب و أخيراً إلى توكيل أجهزة تكييف و فى كل مرة يواجه بهجت المتجدد دائماً و الذى يضيق من المنافسة نفس المصير .. يبدأ الفكرة و الشرارة الأولى فى مدينتنا فتنشر و ينفذها غيره بشكل أفضل بعد أن يتحمل هو خسائر المخاطرة

مع نهاية العقد الأول من الألفية حصلت على عقد عمل فى أحد الدول العربية .. سافرت و شغلتنى دوامة الغربة قبل أن أقرر العودة أنا و زوجتى نهائياً لأستقر فى بلدى بعدها بخمس سنوات .. ذهبت إلى مدينتى و سرت فى شوارعها أتفقد كل ركن فيها و أستعيد ذكرياتى .. قابلت بعض أصدقائى و منهم محمود أبن بهجت الأكبر .. مررنا على محل بهجت الذى كان مغلقاً و قبل أن أسأل محمود عن سر أغلاقه وقع بصرى على لافتة كبيرة مكتوب عليها " الأفتتاح قريباً " فكتمت فضولى منتظراً معرفة أخبار المشروع الجديد فى حينه

وضعت زوجتى طفلنا الأول بعد عودتنا بشهر .. شغلنى قدومه عن الدنيا .. زارنى محمود و تلقيت تهنئته و لكنى نسيت أن أسأله عن مشروع والده .. ذهبت بعدها بةةة أيام لشراء بعض الأغراض من وسط البلد فطالبنى المحل بثوبه الجديد .. لم أصدق .. كان هذا آخر ما أتوقعه .. أعترف أنى توقعت شئ مختلف .. مجال جديد يغزوه بهجت .. أن يبهرننا بفكرة

مبتكرة كالعادة .. لكنى تفاجئت بالمنظر .. مجرد مكتبة عادية لبيع الكتب .. أرفف ممتلئة بكتب حديثة و مجلدات ضخمة و كتب أطفال بالإضافة إلى ركن خاص شغل نصف مساحة المحل تقريباً لبيع الكتب المستعملة .. أتذكر أنه كان لدينا فى المدينة قديماً عدد من المكتبات التقليدية مثلها لبيع الكتب و لكنها أغلقت أبوابها من فترة ليست بالقصيرة .. و أصبحت الكتب الآن تباع على الأرصفة .. رأيت بهجت بعد أن تعدى عمره الستين و هو يجلس بهدوء خلف مكتب بسيط تعلوه بعض الكتب يطالع واحد منها .. عندما قابلت محمود بعد عدة أيام سألته عن سر التغيير الجديد .. سرد لى بخيبة أمل كيف حاول الكثيرون أقناع والده بالعدول عن فكرة المشروع .. بل هاجمه البعض و من بينهم ولديه .. حاولوا أقناعه كثيراً بمدى حماقة الفكرة .. واجهوه بكل الحجج المنطقية .. " تبيع كتب لناس مش لاقية تاكل " .. " مين اللى بيقراً دلوقتى فى الزمن ده ، حد عنده وقت للقراء " .. " أقل كتاب جديد تمنه يوكل أسرة فقيرة يومين بحالهم .. و بعدين الناس دلوقتى بتقدر تنزل من النت أى كتاب و تقراه ببلاش .. مين عنده أستعداد يرمى فلوسه فى شوية ورق " .. " حتى المكتبات القليلة اللى كانت موجودة هنا قفلت من زمان .. و الكتب بتتباع على الأرصفة دلوقتى و مش لاقية اللى يشتريها "

عرفت أنه أستمتع بصبر إلى معظم تلك التعليقات و لكنه أصر على

موقفه .. نفذ فكرته و لم يتراجع دون أن يفهم أحد سر تمسكه بها مما دفع البعض للظن أنه أصابه الخرف بسبب سنه

مرت عشر سنوات .. الآن وصل أبني الأكبر إلى نهاية مرحلته الابتدائية .. و أنجبت طفلاً آخر .. بدأ الشيب يغزو رأسى و لم يغير بهجت مشروعه .. أطول مدة لبثها مشروع له .. ما زال محل الكتب كما هو .. المحل الوحيد فى مدينتنا الصغيرة .. عندما تمر عليه ترى رجلاً عجوزاً تعدى السبعين من عمره .. غزا الشيب ما تبقى من شعره .. يرتدى نظارة طبية ذات عدسات سميقة و لكنه ما زال محتفظاً بحيويته .. يجلس بهدوء يومياً أمام أرفف الكتب داخل مكتبته ترسم على وجهه ابتسامة رضا لا تخطئها العين .. أعتقد أن بهجت أثبت للمرة الأخيرة بعد نظره .. مرت أكثر من عشر سنوات على أفتتاح المكتبة و رغم مرور كل تلك المدة لم يحاول أحد تقليده أو أفتتاح مشروع مشابه له .. ولا أتوقع أن يقلده أحد مستقبلاً .. بضاعته الراكدة عند الناس لا تشجع أحداً على الخوض فى مخاطرة مشابهة .. و برغم أرباحه شبه المدومة و زبائنه المددولين الذين يتناقصون سنوياً .. لكن الأمر المؤكد أن بهجت يشعر بالرضا ، و لأول مرة طوال حياته يفتتح مشروعاً لا يزاحمه فيه أحد .. مشروع لم يعد يخشى معه أخيراً من أى تقليد أو منافسة محتملة فى المستقبل

سيد النصاب

جلست مع صديقى على المقهى نتبادل الحديث .. لم أره من فترة نظراً
لسفرى للخارج فطالت جلستنا .. تبادلنا المزاح و لم أسلم من ثرثرته المعتادة
قبل أن يتوقف فجأة عن الكلام .. لاحظت أنه ينظر بأهتمام إلى نقطة ما خلف
ظهري .. ألتفت فوقع عيناى على رجل دخل للمقهى لتوه .. رجل فى
الخمسينات من عمره يرتدى ثياب فاخرة جلس غير بعيداً عنا مع صديق
ينتظره و طلب شيشة دخنها بهدوء بمجرد أن جاء بها النادل .. لم يكن فى
شكله ما يثير الريبة .. ألتفت لصديقى قائلاً : يبدو أنك تعرفه جيداً

أجابنى بسرعة : نعم .. سيد النصاب .. و من لا يعرفه
سألته مازحاً : سيد النصاب .. و هل هذا لقب أم أسم لعائلته
أجابنى بجد : بل لقبه .. نصب بالفعل على كثير من الناس هنا
تملكتنى الدهشة .. سألته بتعجب : لما لم يلقوا القبض عليه أنن
تنهد قائلاً : ربما لأنه لم ينصب على أحد كما تتخيل

قبل أن أعلق على هذا اللغز قاطعنى صديقى مكماً كلامه : لو سمعت
حكايته لفهمت

لم يوضح الأمر .. تملكنى الفضول فسألته : وما هى حكايته ؟
سكت قليلاً .. ثم أبتسم قائلاً : حسناً .. سأحكى لك و لكن لا تواصل
النظر خلفك تجاهه بهذا الشكل المثير للريبة

أعدلت فى مكانى .. أرتشف صديقى من كوب القهوة الموضوع أمامه ..
قبل أن يحكى بنبرة هادئة و بصوت تعمد أن لا يكون عالياً:

سيد شخصية عجيبة .. صحيح أنه نصب على كثير من الناس .. ولكنه
لم يستولى على نقود أحد .. تلاعب بالقانون و لكن لم يستطع رجال القانون
توجيه أى اتهام له .. يمكنك أن تطلق عليه نصاباً .. و لكن أحرص أن يسمعك
و إلا قاتلك مستميتاً على شرفه الذى لا يقبل أن يمسه أى أحد

سيد لم يكن مخادعاً .. لم يتورط من قبل فى أى أمور تسمى لسمعته .. و
رغم تمتعه بذكاء غير عادى و قدرة هائلة على الأقناع و لكنه لم يستغلها
يوماً فى خداع أى شخص .. لم يكن ضميره يسمح له بذلك .. و لكن عندما
حاصرتة أزمة خانقة .. و اضطرتة الظروف للنصب .. قام بالأمر ببراعة
يحسد عليها

سيد كان يحلم يوماً بالثراء .. أمتلك العديد من الأفكار الجيدة حقاً التى

فشل فى تنفيذها نظراً لقلّة موارده .. قبل الأزمة كان موظفاً مرموقاً فى الخارجية يتمتع بسمعة طيبة .. شخصية مرحة يكتسب علاقات جديدة كل يوم و يعرض خدماته على الجميع و لا يتأخر عن مساعدة أحد .. نجح فى تكوين دائرة علاقات قوية و ساعد كل من يلجأ إليه .. لم يكن يتقاضى مقابل فى سبيل خدماته .. مما أتاح له شهرة واسعة فى محيط مدينته .. تقاعد من وظيفته مبكراً بعد أن عرض عليه صاحب أحد شركات المقاولات الخاصة وظيفة معه براتب مغرى بعد أن أعجب بذكائه .. لم يفكر كثيراً .. عمل معه لمدة عامان قبل أن تغلس الشركة .. خرج خالى الوفاض و لكن بخبرة جيدة فى السوق و أحلام كبيرة فى رأسه .. لم يستطع العودة إلى وظيفته القديمة التى لم تعد ترضى طموحه .. و لم يبحث عن وظيفة جديدة لن يجدها بعد أن تخطى الخمسين .. ظل فترة بلا عمل و لكنه لم يتوقف عن دراسة السوق و متابعة أحواله .. عندما حاصرتة الديون .. و أوشك بيته القديم على الأنهيار .. لم يجد بداً من تنفيذ فكرة طالما روادته .. فكرة خطط لها طويلاً لتنتقله إلى عالم الثراء

أنشئ شركة صغيرة لألحاق العمالة بالخارج مستغلاً شهرته .. بدأ يقبل كل الطلبات دون طلب نقود من أى عميل .. أستغل صلاته السابقة و نجح فى توفير فرص عمل بالخارج لبعض من عملائه بالفعل .. مما زاد من شهرة

مكتبه .. لم تمر سوى أسابيع قليلة حتى أعلن أنه يريد عمال من جميع التخصصات للعمل فى شركة مقاولات كبرى داخل دولة خليجية برواتب مجزية .. توافد على مكتبه الكثيرون .. كان يقابل كل راغب فى السفر منهم بنفسه .. عمال نجارة .. سباكين .. سائقين .. عمال كهرباء .. نقاشين . وعد الجميع بنفس الشئ .. عقد عمل مغرى براتب يسيل له اللعاب فى دولة عربية غنية لشركة مقاولات كبيرة و لكنها ما زالت تحت التأسيس .. صاحبها خليجى و لديه شركة مقاولات عملاقة تمتلك فروعاً فى كل البلاد العربية و منها فرع هنا .. وعدهم بتوفير العقود خلال أشهر بسيطة بمجرد أنتهاء اجراءات التأسيس للشركة الجديدة .. أوهم الجميع أن الفرص محدودة فى حين أن أعداد المتقدمين كبيرة .. طلب من كل عامل دفع جزء من ثمن العقد مقدماً .. و الأولوية لمن يدفع أولاً .. لم يشكك أحد فى كلامه .. تاريخه معروف و نزاهته ليست محل جدل .. دفع كثير من العمال .. و اعتذر البعض .. و لكى يزيل أى شبهة شك تجاهه من قلوب عملاءه .. وقع ايصالات أمانة مقابل كل مبلغ أستلمه

لا يعلم أحد كم جمع تحديداً .. و لكنه بالتأكيد مبلغ كبير .. باع بيته القديم الآيل للسقوط و كل ممتلكاته قبلها بعدة أسابيع .. و دفع مقدم لقطعة أرض كبيرة فى مكان مميز كان يضعها نصب عينيه من فترة ثم أستكمل شراء

الأرض و سدّد باقى ثمنها بعد أن حصل على نقود عملائه .. و طبعاً تم كل هذا فى الخفاء .. قدم بعدها مباشرة على قرض من بنك كبير يعمل به أحد أقرابه كعضو منتدب .. تمت الموافقة على القرض سريعاً بضمان الأرض التى تعلو قيمتها يومياً .. و أستغل هو فترة أنتهاء إجراءات القرض فى الاتفاق مع أحد المكاتب الهندسية لتصميم برج أدارى ضخّم .. و أستخراج الرخص اللازمة

هزّزت رأسى و قاطعت صديقى قائلاً : فهمت .. أستغل بجشع أحلام الشباب و العمال البسطاء فى السفر للخارج لتوفير حياة أفضل لهم و لأسرهم ، و جمع منهم النقود ثم ماظلمهم .. بنى البرج و باع وحداته ثم صرف لكل عامل ما دفعه و اعتذر لهم

أبتسم صديقى قائلاً : لا .. ما حدث أعجب بكثير

كان يمكن أن يتوقف عند هذا الحد .. و لكن الأغرب هو ما حدث لاحقاً .. أتصل بكل العمال و حدد موعد للقائهم فى مكتبه .. فى اليوم المحدد خرج إليهم .. تكلم بهدوء و ثقة عن الكفيل الذى بصدد القيام بمشروع جديد و لكن هذه المرة داخل البلاد .. مبنى أدارى ضخّم تتولاه فرع شركته هنا .. أوهمهم أن الكفيل طلب منه الاتفاق معهم على العمل فى مشروعه الجديد هنا أولاً .. مجرد فترة اختبار و فرصة عملية للكفيل للحكم

على كفاءة كل عامل قبل سفره للخارج .. فشركاته تتمتع بسمعة طيبة و لا تقبل إلا كل عامل متميز .. و فى النهاية من سينجح فى الاختبار يسافر فوراً .. و من يفشل يعيد إليه نقوده فى الحال .. أبلغهم أنه بالطبع لن يتم العمل بدون مقابل .. بل على العكس سيحصل كل عامل على أجر أكبر من أجره المعتاد طوال فترة العمل فى المشروع الجديد .. و ربما يكسب ضعف أجره .. و عند الانتهاء من كلامه أبلغهم أنه ينتظر الرد سريعاً

لم يشكك أحد فى كلامه .. تحمس البعض فوراً .. فى النهاية لن يخسر أحد فسيعملون براتب كبير .. أكبر مما اعتادوا عليه .. و فرصة لكل عامل لأظهار مدى براعته للكفيل أملاً فى اقتناص فرصة السفر .. أنتقل الحماس تدريجياً لباقي العمال أملاً فى أثبات كفاءتهم و الحصول على العقد الذى يترجم كل أحلامهم .. و لم ينسحب أى عامل .. ربما لأن أنسحاب أحد معناه اعتراف ضمنى أمام الجميع بعدم كفاءته و خوفه من خوض الاختبار .. تم الأمر كما توقع بعد أن لعب بذكاء على الوتر الحساس .. وتر أذكاء أحلامهم البسيطة .. و لم يضيع هو وقته فواصل أستخراج التصاريح اللازمة بالطرق المباشرة و غير المباشرة .. و وفر كل المعدات اللازمة لمشروعه .. و اتفق قبلها مع الشركة المنفذة على كتمان هوية المالك

و بدأ العمل .. و العمال يبذلون أقصى طاقاتهم .. و يتقاضون أجرهم كاملاً

مضاعفاً أحياناً .. و كل عامل يؤدي بحماس كبير و يظهر كل إمكانياته ..
وأنتهى الحفر و صب الأساسات فى وقت قياسى .. و بعد شهرين بدأ برج
كبير فى الظهور للحياة .. و أحضر سيد عمالاً أكثر .. و وضع كل عامل
خبرته و علمه و هو يمنى نفسه بالعقد المغرى .. حتى فى أوقات الراحة
كانوا يتكلمون عن حلم السفر و العقد المنتظر .. لم يتأخر عامل يوماً أو
يتقاعس فى أداء مهامه .. و أظهروا إخلاصاً لم يظهره طوال عمرهم .. و
خصوصاً أمام المهندس المشرف على المشروع عندما أعتقدوا أنه هو من يراقبهم
و يحكم عليهم .. و زاد من حماسهم ظهور سيد فى موقع العمل يوماً بصحبة
رجل مسن وقور يرتدى زياً خليجياً و يستقل سيارة فارهة .. و تهاوسوا فيما
بينهم أنه الكفيل .. و زادت أحلامهم برؤيته

شهور و العمل يستمر ليلاً و نهاراً بلا توقف .. و أرتفع البرج شامخاً
يبهر الأنظار .. و بدأت رحلة التشطيب و أنتظر الجميع بفارغ الصبر أنتهاء
العمل للحصول على العقود .. ثلاث عمال فقط طوال فترة البناء اضطرتهم
ظروفهم الخاصة للتراجع عن فكرة السفر .. و دفع سيد لكل منهم نقوده فى
الحال بدون مماطلة .. مما طمأن الجميع على نزاهته

و لأن سيد أجاد اختيار موقع برجه فى مكان مميز فى قلب المدينة .. و
لأن البناء كان حقاً تحفة معمارية أبدع فيها كل من عمل فى بنائه .. فبمجرد

أن أعلن عن بيع وحداته حتى تسابق الكثيرون للشراء بالرغم من الأسعار الكبيرة التى فرضها .. و بيعت كل وحدات البرج بالكامل فى وقت قصير و حدث طبعاً ما هو متوقع .. أجتمع بالعمال و أخبرهم أن الكفيل يمر بأزمة مالية و أنه قرر تأجيل إنشاء فرع الشركة الجديد .. أبلغهم بأسفه لانتهاء الأمور على هذا الحد غير المتوقع .. و أسف الكفيل لأضطرابه لألغاء كافة إجراءات التعاقد معهم و التى كان بدأها بالفعل نظراً للظروف الطارئة التى يمر بها و تخرج عن أرادته .. و منح كل عامل مقدم عقده مع وعد خاص بمواصلة سعيه لأيجاد عقود بديلة لهم

وجدت نفسى أسأل صديقى بدهشة : و كيف لم يثور العمال ضده بعد علمهم بحقيقته ؟

أجابنى بسرعة : لم يكونوا على علم وقتها أنه صاحب البرج .. أخفى الأمر عن الجميع حتى عن زوجته و أبنائه ..

سألته : و النيابة .. قلت لى أنهم لم يجدوا دليلاً ضده

قال بأسف : إجراءاته كلها كانت قانونية .. عندما أفتضح أمره بعد عدة أشهر بأنه هو صاحب البرج تقدم بعض العمال ببلاغ ضده .. و لكن لم يكن هناك ثغرة لأدانتة .. أوراق مكتبه لألحاق العمالة بالخارج كانت سليمة .. النقود التى أستلمها من العمال ردها إليهم دون نقص .. و الأيصالات التى

كتبها على نفسه بالطبع أستردها .. حتى الأرض أثبت أنه اشتراها قبل الحصول على نقود العمال و هذا هو المهم لأنه نفى عن نفسه استغلاله لهذه النقود فى أغراض شخصية .. و البناء تم بقرض البنك أى أنه لم يستخدم نقود عملائه فى مشاريع خاصة يتربح منها

صحت بدهشة : و خداعهم له بأنه ليس صاحب البرج الذى يشيد
أجاب بهدوء : لا يوجد نص فى القانون يجبر أى شخص على إعلان ممتلكاته لأحد .. إلا لجهات قانونية محددة .. و بالتالى أخفاؤه الأمر عن العمال ليس بجريمة يحاسب عليها .. كما أن العمال اعترفوا أنهم حصلوا على أجورهم كاملة ، بل و أكثر منها طوال فترة البناء .. أى أنه لم يستولى حقوق أى أحد .. و الأدهى أنه أثبت أنه وفر بالفعل لعدد من العمال عقود عمل لاحقة .. و هو ما تبين صحته و بالتالى نفى عن نفسه نية النصب .. و لا تنسى أن الخلاف دب بين العمال أنفسهم

سألته : كيف ؟

أجاب : أستطاع أن يسوى أموره جيداً معهم .. قلت لك وفر لاحقاً لعدد منهم بالفعل عقود عمل .. ليست مغرية و لكنهم قبلوها .. و منهم من أعطاه بعض المال للتنازل و تغيير أقواله .. و البعض لم يذهب أصلاً و نسي الموضوع .. و كما قلت لك .. الأهم فى الموضوع أنه لم يستولى على نقود أحد ..

حصل فقط على مخالفة لطلبه من العمال مقدم عقود قبل توفير فرص العمل
فالقانون يحرم على مكاتب السفر تحصيل أى نقود من أى عميل قبل توفير
العقد .. وهى مخالفة إدارية .. ولا تهمه لأنه أغلق المكتب نهائياً بعدها
بفترة .. على العموم هذا ما حدث من سنوات طويلة .. الآن أصبح من كبار
رجال الأعمال فى مدينتنا هنا .. و مشاريعه تتوسع يوماً عن آخر .. ولم يعد
للنصب أبداً .. ونسى كثير من الناس بالفعل حكايته .. إلا البعض و منهم أنا
ألتفت و حدقت فى الرجل بغضب .. ضحك صديقى قائلاً : لا تنظر إليه
هكذا .. من يدري .. ربما فى يوم من الأيام بعد عودتك من الخارج تعمل فى
أحد شركاته .. أسمع أنه يمنح مرتبات جيدة .. ويشجع الشباب و يؤمن
بهم و يمنح مزايا عديدة لمن يعمل معه صعب أن تجدها فى أى مكان آخر .. و
لكن أياك وقتها أن تذكره بماضيه
ضحكنا و أنا ألقى نظرة أخيرة إلى الرجل الجالس خلفى يدخل بهدوء

الفهرس

5		المجرم
12		أستعداد
18		الحارة
31		دائرة الحرامية
42		حفلة عيد ميلاد
54		التحدى
59		الواشى
69		الوحش
79		الدور
94		السيارة
106		أنتحار فاشل
116		قضاء و قدر
138		صورة
151		بهجت
163		سيد النصاب